بسم الله الرّحمن الرّحيم

أخواتنا الفاضلات، إليكنّ سلسلة تفاريغ من دروس أستاذتنا الفاضلة أناهيد السميري حفظها الله، وفّق الله بعض الأخوات لتفريغها، ونسأل الله أن ينفع بها، وهي تنزل في مدوّنة (عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ)

https://anaheedblogger.blogspot.com/

تنبيهات هامّة:

- منهجنا الكتاب والسّنّة على فهم السّلف الصّالح.

- هذه التّفاريغ من اجتهاد الطّالبات ولم تطّلع عليها الأستاذة حفظها الله.

- الكمال لله -عزّ وجلّ- فما ظهر لكم من صواب فمن الله وحده، وما ظهر لكم فيه من خطأ فمن أنفسنا والشّيطان، ونستغفر الله.

والله الموفّق لما يحبّ ويرضى.

اللّقاء الأوّل

دعاء زكريّا -عليه السّلام- في سورة آل عمران

الخبر عن امرأة عمران نموذجًا للاجتهاد في الدّعاء تقبّلها ربّها بقبول حسن

هذا القبول الحسن جعلها فوق كثير من الأولياء فجعل ذرّيّة هذه المرأة من كبار الأولياء

أتى ذكرها في بداية موطن سياق الآيات (33-35)

الخبر عن مريم ابنة عمران تجيب زكريّا -عليه السّلام- جواب من عرفت وظيفتها في الحياة

أتى ذكرها في نفس موطن السّياق في الآية (37)

دعاء زكريّا -عليه السّلام- في اللّحظة اليقينيّة لـمّا رأى كرامة مريم على الله

أتى ذكره في نفس موطن سياق الآيات (38-41):

{هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ (38) فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ (39) قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ (40) قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً ۖ قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ}

مسألة:

على قدر الافتقار في الدّعاء يكون الاصطفاء ويكون العطاء من الله الغنيّ الحميد

النّموذج في ذلك دعاء زكريّا -عليه السّلام- في سورة آل عمران (38-41)

كيف أنّ الدّعاء له أثر في جلب العطايا وإن ضعفت الأسباب

بسم الله الرّحمن الرّحيم

المقدّمة: على قدر الافتقار في الدّعاء يكون الاصطفاء ويكون العطاء من الله الغنيّ الحميد

السّلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الحمد لله ربّ العالمين، والصّلاة والسّلام على نبيّنا محمّد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

نحمد الله حمدًا كثيرًا طيّبًا مباركًا. الأيّام تتسارع بنا وقد وصلنا إلى قرب نهاية الشّهر فهذا هو يومنا السّادس والعشرون الّذي نصومه بفضل الله، فنسأل الله -عزّ وجلّ- بمنّه وكرمه أن يتمّم لنا صيامنا وقيامنا، وأن يتقبّل منّا أعمالنا، وأن يعيننا على ما بقي ويجعل ختام هذا الشّهر مغفرةً وعتقًا من النّيران، اللّهمّ آمين.

الدّعاء والإلحاح فيه والإكثار منه عبادة من أعظم العبادات في هذا الشّهر المبارك، فالصّائم له دعوة مستجابة خلال يومه وعند فطره، وإنّ حال الصّيام من الأحوال الّتي يظهر فيها الافتقار وهو شرف للعبد المؤمن، فإنّه على قدر الافتقار يكون الاصطفاء من ربّ العالمين، وعلى قدر الإقبال بصورة الافتقار يكون عطاء الله الغنيّ الحميد، والعبد إذا تكبّر وترفّع عن سيّده ومولاه وأظهر عدم حاجته له يكون سَدَّ على نفسه أبواب العطايا واغترّ بنفسه وبظنّه أنّه يستطيع أن يستغني عن ربّه، ولذلك ربّ العالمين قرن بين مسألتين:

1. بين الأمر بالدّعاء.
2. وبين الاستكبار.

فقال -سبحانه وتعالى- كما في سورة غافر: {وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ}[1] فهذه دعوة للنّاس أن يدعوا ربّ العالمين، والتّارك للدّعاء لا بدّ أن يكون مستكبرًا مستغنيًا عن الله، والدّعاء هو العبادة؛ لأنّ الله -عزّ وجلّ- قال: {إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي} فهذا العمل العظيم الّذي هو الدّعاء عمل يسير

[1]() سورة غافر: 60.

من تيسير الله وله شأن عظيم في ليلة القدر، وقد ورد في الأحاديث[2] سؤال عائشة -رضي الله عنها- للنّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- ما تقول إذا عَلِمَت أنّها ليلة القدر فأرشدها النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- إلى أن تدعو الله بالعفو، وهذا فيه إرشاد عظيم إلى أنّ القائمين العابدين ليلة القدر ((مَنْ قَامَ لَيْلَةَ القَدْرِ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا))[3] لا بدّ أن يكونوا داعين لأنّ الدّعاء هو العبادة.

وسيتبيّن لنا إن شاء الله اليوم من دراستنا لدعاء زكريّا -عليه السّلام- كيف أنّ الدّعاء له أثر في جلب العطايا وإن ضعفت الأسباب؛ ولزكريّا ثلاث مواطن في القرآن يخبر فيها -تعالى- عن دعائه، نبدأ بالموطن الأوّل الّذي في آل عمران، في هذا الموطن سنقرأ من بداية السّياق لنرى ما الموقف الّذي دعا فيه زكريّا ربّه؛ لأنّ هذا الموقف يتميّز عن غيره في المواقف الّتي أُخْبِرْنا فيها عن الدّعاء بميزة إن شاء الله تظهر لنا أثناء النّقاش. هذا الموطن الّذي في آل عمران والّذي مبدؤه الخبر عن امرأة عمران من المواطن المهمّة في عقيدتنا كما سيتبيّن لنا إن شاء الله.

[2]() الحديث المُشار إليه هنا أخرجه التّرمذي، (3589). متن الحديث: ((عَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَرَأَيْتَ إِنْ عَلِمْتُ أَيُّ لَيْلَةٍ لَيْلَةُ القَدْرِ مَا أَقُولُ فِيهَا؟ قَالَ: قُولِي: اللَّهُمَّ إِنَّكَ عُفُوٌّ تُحِبُّ الْعَفْوَ فَاعْفُ عَنِّي)).

[3]() أخرجه البخاري، (1817).

1/ دعاء زكريّا -عليه السّلام-

في سورة آل عمران

في اللّحظة اليقينيّة لـمّا رأى كرامة مريم على الله:

موطن الآيات: (38-41)

{هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ (38) فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ (39) قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ (40) قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً ۖ قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ}

دعاؤه -عليه السّلام- في موطن سورة آل عمران (38-41)

نبدأ أوّلًا بسماع الآيات الّتي تبتدئ بالآية (33) في آل عمران، بسم الله:

{إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ (33) ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (34) إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي ۖ إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (35) فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (36) فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ۖ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (37) هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ (38) فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ (39) قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ (40) قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً ۖ قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ}[4].

بسم الله نبدأ من قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ} هذا الخبر الّذي هو اصطفاء آل عمران على العالمين واضح العلاقة بسورة آل عمران، فإنّ هذه السّورة العظيمة الجليلة وسورة البقرة يأتيان يوم القيامة كالغمامتين على صاحبهما الّذي حفظهما والّذي عمل بهما.

هذه السّورة العظيمة فيها من معاني التّوحيد الشّيء العظيم، وكلّما تذكّرنا اسم السّورة نتذكّر دلالتها على توحيد الله، فإنّ مضمون هذه السّورة الرّئيس هو الرّد على وفد نجران النّصارى الّذين يعتقدون الاعتقاد الباطل، بل أعظم باطل وهو أنّ لله -تعالى- ولد، تعالى الله عمّا يقولون! فقيل لهم من اسم السّورة وهذا الّذي نتذكّره دائما: عيسى ابن لآل عمران من ذرّيتهم وليس ابنًا لله!

---

[4]() سورة آل عمران: 33-41.

الخبر عن امرأة عمران نموذجًا للاجتهاد في الدّعاء تقبّلها ربّها بقبول حسن:

وابتدأ السّياق الّذي هو في الأصل للرّدّ على وفد نجران ببيان فضل آل عمران الّذين منهم عيسى -عليه السّلام- فقال سبحانه وتعالى:

{إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ} يعني اختار بالنّبوّة {آدَمَ} -عليه السّلام- فخلقه بيده، ونفخ فيه من روحه، وعلّمه أسماء كلّ شيء، وأسكنه الجنّة ثمّ أهبطه منها، وفي كلّ ذلك حكمة.

واصطفى {نُوحًا} فجعله أوّل رسول لأهل الأرض لـمّا عبد النّاس الأوثان وأشركوا بالله ما لم ينزّل به سلطانًا، ونجّاه ومن اتّبعه في السّفينة وأغرق من عصاه.

واصطفى -سبحانه وتعالى- {آلَ إِبْرَاهِيمَ} عشيرته وذوي قرباه وهم إسماعيل وإسحاق ويعقوب والأنبياء من أولادهم الّذي من جملتهم النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم.

واصطفى {آلَ عِمْرَانَ} لأنّ الله جعل فيهم عيسى -عليه الصّلاة والسّلام- وعلى نبيّنا -أفضل الصّلاة والسّلام- فجعل من آل عمران عيسى الّذي أُوتِيَ البيّنات وأُيِّدَ بروح القدس، والمراد بعمران والد مريم أمّ عيسى -عليهما السّلام- اصطفاهم الله {عَلَى الْعَالَمِينَ} فكلّ واحد منهم كان مصطفًى على عالم زمانه.

ثمّ أخبر -سبحانه وتعالى- أنّ هؤلاء {ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ} نسل متناسل بعضهم من بعض، فورثوا العلم وورثوا الاصطفاء {وَاللَّهُ سَمِيعٌ} لأقوال العباد {عَلِيمٌ} بضمائرهم وأفعالهم يصطفي من خلقه ما يشاء وهو -سبحانه وتعالى- عليم بما في قلوبهم، وعليم بصلاحهم، فالله أعلم حيث يجعل رسالته، وقد وصفهم الله في سورة الأنبياء بأنّهم {كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ}[5] فكانت ميزتهم أنّهم يسارعون في الخيرات، وأنّهم يدعون {رَغَبًا وَرَهَبًا}.

فالدّعاء من أسباب الاصطفاء؛ والاصطفاء هنا في الآيات إنّما هو اصطفاء النّبوّة وما دون النّبوّة كما سيتبيّن وهو اصطفاء الولاية، لكن ميزتهم أنّهم يجمعون بين ثلاثة صفات:

الصّفة الأولى: {يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ}.

الصّفة الثّانية: {وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا}.

---

[5]() سورة الأنبياء: 90.

الصّفة الثّالثة: {وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ}.

نعود إلى امرأة عمران كما في السّياق يخبر -سبحانه وتعالى- عن موقف عظيم من المواقف الدّالّة على أنّ هؤلاء قد اصطفاهم الله ورفعهم عن غيرهم بأن تكون منهم النّبوّة وأن تكون فيهم الولاية ولاية الله لخلقه.

{إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ} واذكر هذا الّذي حصل من امرأة عمران حيث أنّها نذرت فقالت: {رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا} وهذا أمر كان في دين اليهود معلومًا، وهو أن يُنذر الطّفل لأن يكون خادمًا في بيت المقدس، أو خادمًا لأماكن العبادة، فأرادته مُحَرَّرًا، بمعنى أنّها حرّرته من الانتفاع لنفسها به، فالأمّ والأب من شأنهما أن ينتفعا بالولد لمنافع أنفسهما، بينما هي حرّرته من نفسها ونذرت أن يكون وقفًا على طاعة الله، كأنّها تقول: "لا أشغله بشيء من أموري" فجعلت ما في بطنها لله خالصًا ولم تطمع فيه كما يطمع النّاس عادةً في أولادهم، فهي أرادت الكمال لنفسها ولولدها فتتخلّص من الطّبيعة الإنسانيّة تقرّبًا لله.

النّاس يطلبون الأبناء للاستئناس والاستنصار والاستعانة بهم في أمر المعاش وهذا كلّه من الأمور الطّبيعيّة، والواجب على المؤمنين وألزم ما عليهم أن يكون هؤلاء الأبناء هادين مهتدين، فالمؤمنون يقولون كما قال -سبحانه وتعالى- في سورة الفرقان: {رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا}[6] فهم يريدونهم "قرّة أعين" لهم بالصّلاح وهذا عندهم أهمّ من الاستعانة بهم في أمر المعاش أو الاستنصار بهم أو الاستئناس إنّما الاستئناس بهم يكون على قدر صلاحهم، ولذلك فإنّ أكثر شيء يأتي لهؤلاء الآباء والأمّهات بالغمّ هو تأخير أولادهم للصّلاة وتضييعهم لأوقاتهم، لكن في مثل هذه العلّة الّتي هي من أكثر العلل الّتي تُصاب بها الأمّهات ما لنا إلّا الدّعاء، فنأمرهم وننهاهم لكن كيف ندخل على القلوب ونؤثّر فيها؟ بالدّعاء، ولذلك في الفرقان وصف المؤمنون الكُمَّل عباد الرّحمن: {وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا}.

نعود إلى امرأة عمران فهي نذرت هذا الابن الّذي في بطنها أن يكون مُحَرَّرًا مُخْلَصًا للعبادة فقط، يعبد الله ويخدم في المتعبَّد الّذي هو بيت المقدس {فَلَمَّا وَضَعَتْهَا} ظهر أنّها

---

[6]() سورة الفرقان: 74.

ستكون أنثى {قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ} وهي كانت قد رَجَت أن يكون ذكرًا من أجل أن يَصلح لهذه الوظيفة.

{وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ} وهذه آية لها قراءتان، بسكون التّاء وبضمّها:

القراءة الأولى: بسكون التّاء تكون الجملة من كلامه -تعالى- فهي قالت: {رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ} أنّها أرادت إعلام الله، والله -سبحانه وتعالى- يعلم كلّ شيء ولا يحتاج إلى إعلام فقال: {وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ}؛ ومن الممكن أن يكون المعنى والله أعلم بالنّفس الّتي وضعتها وما سيكون لها من شأن ومن جعل ابنها آيةً للعالمين وهي غافلة عن ذلك.

القراءة الثّانية: أمّا بالضّمّ فيكون هذا الاعتراض من كلامها {وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتُ} فكأنّه من باب الاعتذار إلى لله -تعالى- أنّها أتت بمولود لا يصلح لما نذرت، ومن الممكن أن يكون المعنى لعلّ الله جعل فيها سرًّا وحكمةً، ولعلّ الله يجعل هذه الأنثى خيرًا من الذّكر.

ثمّ قالت: {وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ} يعني في مقام قصد إخلاص هذا المنذور للعبادة؛ لأنّ الذّكر يصحّ منه أن يستمرّ في خدمة العبادة، في مقابل الأنثى تأتيها العوارض فلا تصلح لسكنى دار العبادة دائمًا، والذّكر يكون أقوى وأشدّ في مقابل أنّ الأنثى أضعف وأكثر حاجة للرّاحة منها من الذّكر، والخوف على الأنثى من الاختلاط بالعابدين أكيد أنّه عظيم فإنّها تلحقها التّهمة في أيّ تصرّف، في مقابل أنّ الذّكر لا يلحقه ما يلحق الأنثى، ففي هذا المقام فُضّل الذّكر على الأنثى، وبهذا نفهم أنّه في كلّ موطن هناك نوع تفضيل، فقد يكون الذّكر في موطن خير من الأنثى، وقد تكون الأنثى في موطن آخر خير من الذّكر وهكذا، فالمقصد تأكيد الاعتذار ببيان أنّ الذّكر ليس كالأنثى في القيام بهذه المهمّة.

قالت: {وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ} وقد ذكر كثير من المفسّرين أنّ معنى "مريم" العابدة، ثمّ دعت: {وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ} يعني أجيرها بك، وليست هي فقط إنّما هذا من التّوفيق {وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ} يعني أستحفظك إيّاها أن يصلها شيء من أذى الشّيطان الّذي يطمع في إغواء كلّ مولود، فبهذا الدّعاء الّذي قَبِلَه الله -عزّ وجلّ- عَصَمَ مريم وابنها ببركة هذه الاستعاذة.

وهذا الواجب على المؤمنين المتّقين، أن يكونوا في غاية الاهتمام بِعَوْذِ[7] أبنائهم من الشّيطان الرّجيم فإنّ للشّيطان تسلّط على قلوب الصّغار الشّباب مع نقص عقولهم وتجاربهم ومعارفهم، فإنّه يوهمهم أوهامًا خطيرةً، وهذا سيتبيّن لنا إن شاء الله عندما نصل إلى قصّة يوسف -عليه السّلام- ودعائه في سورة يوسف، وسيتبيّن لنا كيف أنّ الشّيطان له إيذاء عظيم بالشّباب خاصّةً، فهي دعت هذا الدّعاء أن يُعيذ مريم وذرّيّتها من الشّيطان الرّجيم، فكان هذا أخوف مخاوفها وأعظم مطالبها أنّ الله -عزّ وجلّ- يحفظ لها هذه الذّرّيّة من الشّيطان، فإنّ الشّيطان يُغالب الإنسان على فطرته السّويّة وعلى تربية أهله المستقيمة، وهذه بيئة محافظة صادقة ومريدة وجه الله وباقون على الفطر السّويّة، فما الّذي يفسد أبناءهم؟! الله يصلح جميع أبنائنا فإنّ الّذي يفسدهم هو عداوة الشّيطان!

فدور الأمّهات والآباء دعاء الله أن يحفظ الأبناء من وساوس الشّيطان؛ لأنّه من وراء هذه الوساوس يحصل ما نعرف، ولنلحظ هذا في نفوسنا فإنّ كثيرًا منّا قد عرف يقينًا بتجربته الخاصّة كيف أنّ الشّيطان يوسوس للإنسان بالدّخول في الجرائم والدّخول في الكبائر، واليوم كلّ شيء سهل عليهم! وأنت يا كبير يا ناضج يا من عرفت حدود الله وقد استقرّت نفسيّتك وعرفت أين تصرّف أوقاتك وطاقاتك، إذا أخذت هذا الجهاز وقلّبته ودخلت في صفحاته تنازع نفسك نزعًا لتخرج منه، فكيف بمن يؤُزُّهم الشّيطان ولا دفاع من نفوسهم! كلّنا يؤذينا الشّيطان لكن يجد الإنسان نفسه إذا تقدّم في العمر وحسنت تجربته وفهم وظيفته في الحياة، يجد نفسه يصارع الشّيطان، لكن مثل هؤلاء الأبناء أعانهم الله!

فواجبنا خصوصًا ونحن في هذه اللّيالي المباركات أن ندعو الله -عزّ وجلّ- أن يعيذهم جميعًا من شرّ الشّيطان، وأن نرى هذه المرأة الصّالحة كيف تقرّبت إلى الله وتوسّلت بالدّعاء ابتداءً بنذر ما في بطنها كما هو مشروع في دينهم، وانتهاءً هنا باستعاذتها وطلبها حفظ ابنتها وذرّيّة الابنة وهذا من امتداد الدّعاء.

واللّيلة تدخل علينا ليلة مباركة من أرجى ليالي الشّهر أن تكون ليلة القدر، فعلى جميع المباركات بذل الجهد في جمع القلب على القيام وعلى تلاوة القرآن وعلى دعاء الرّحمن القريب المجيب، فإنّ في مثل هذه اللّيلة المباركة الّتي هي أرجى ليالي الشّهر أن تكون ليلة

---

[7]() معنى عَوْذ في معجم المعاني الجامع _ **عَوْذ**: (اسم)، **عَوْذ**: فاعل من عاذَ.
معنى عَاذَ في معجم المعاني الجامع _ **عاذَ**: (فعل)، **عَاذَ به:** التَجأَ إليه واعتَصَم به، **عاذ بالله من الشَّيطان الرَّجيم**: احتمى به، التجأ إليه واعتصم به. **أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ**: أَلْتَجِئُ إِلَى اللَّهِ وَأَعْتَصِمُ بِهِ مِنَ الشَّيْطَانِ.

القدر تتنزّل فيها الملائكة، وإذا نزلت الملائكة نطمع بنزول البركات مع الملائكة، فإنّ الله العظيم الغنيّ الكريم الّذي نعلم أنّه يريد نجاتنا، قد فتح لنا أبوابًا عظيمةً من أبواب الطّاعات الّتي تُضاعف فيها الأجور، وجعل القيام في هذه اللّيلة {خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ}[8] فلنجتهد فيها بالدّعاء، ولتكن ليلةً مميّزةً ليست كسائر اللّيالي فننوّع فيها بين القيام وقراءة القرآن وبين الدّعاء، ونكثر فيها من ذكر الله، ونطلب من الله أن يجمع علينا قلوبنا ويحقّق لنا أمانينا في صلاحنا وصلاح أبنائنا وصلاح مجتمعنا وصلاح ولّاة أمرنا وتيسير الشّؤون للخلق، وأن يرفع عنّا ما أصابنا من الوباء، وأن يدفع عنّا الغلاء، وأن يدفع عن المسلمين المجاعات والفقر، وأن ينزّل على أهل الإسلام جميعًا الأمن، وينصر السّنّة وأهل السّنّة وناصري السّنّة، ويقمع البدعة وأهلها وأهل الخرافة ويردّهم على أعقابهم خاسرين، اللّهمّ آمين.

فهذه ليلة مباركة نُقبِل عليها، نرى امرأة عمران نموذجًا للاجتهاد في الدّعاء، ليلة مباركة {فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ}[9] ليلة سألت عنها عائشة: ((قَالَتْ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَرَأَيْتَ إِنْ عَلِمْتُ أَيُّ لَيْلَةٍ لَيْلَةُ القَدْرِ مَا أَقُولُ فِيهَا؟ قَالَ: قُولِي: اللَّهُمَّ إِنَّكَ عُفُوٌّ تُحِبُّ الْعَفْوَ فَاعْفُ عَنِّي))[10].

فلنسأل الله العفو والعافية لنا وللمسلمين جميعًا وهذا من أعظم المطالب فإنّ:

- من رُزق العافية في دينه وفي دنياه سَلِمَ من البدعة ومن الشّرك وكان على السّنّة والتّوحيد.
- ومن رُزق العافية في دينه سَلِمَ من غشيان الكبائر ورُزق التّوبة والاستغفار من كلّ الصّغائر والكبائر.
- من رزقه الله العافية ابتعد وعُوفِيَ من أمراض القلوب الّتي فيها كبائر تأكل الحسنات كما تأكل النّار الحطب، عُوفي من أمراض القلوب وكان سالمًا معافى القلب صحيحه، محبًّا الخير لنفسه ولأهل الإسلام.

فنسأل الله العفو والعافية ((اللَّهُمَّ إِنَّكَ عُفُوٌّ تُحِبُّ الْعَفْوَ فَاعْفُ عَنِّي)) وتاج هذا العفو والعافية:

---

[8] () سورة القدر: 3.
[9] () سورة الدّخان: 4.
[10] () أخرجه التّرمذي، (3589).

- أن يتجاوز الله عن ذنوب العبد، يعامله بعفوه، فيلقى العبد ربّه وما عليه خطيئة.

فالحمد لله الّذي جعل هذه اللّيالي المباركات مضمارًا يتسابق فيه أهل الإيمان، والحمد لله الّذي جعل لنا قدوات نقرأ عنهم في القرآن ونفهم أحوالهم ونسير سيرهم ونرجو من الله أن يقبلنا مثلما قبلهم.

هذا ما كان من امرأة عمران، فكان من ربّ العالمين أن تقبّلها ربّها بقبول حسن، قال الله عزّ وجلّ: {فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ} والفاء هذه تدلّ على أنّه -سبحانه وتعالى- عَجَّل لها بالقبول {وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا} فرضي عنها وأثاب امرأة عمران؛ فالقبول الحسن جعلها فوق كثير من الأولياء {وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا} فجعل ذرّيّة هذه المرأة من كبار الأنبياء، فرُبّيت تربيةً حسنةً صلح بها شأنها فكانت عفيفةً طاهرةً مطيعةً مسدّدةً، وكفّلها ربُّها زكريّا فضمّها إليه؛ فالله سخّر لها زكريّا أن يكون لها كافلًا وضامنًا لمصالحها، وقائمًا بتدبير أمورها.

وقد ذُكر أنّها أخذت ابنتها هذه وحملتها إلى مكان الأحبار وقالت لهم دونكم هذه النّذيرة فاختلفوا من يأخذها وأحبّ كلّ أن يحظى بتربيتها، فحتّى لا يحصل إشكال انتقلوا إلى القرعة، وانطلقوا إلى نهر فألقوا فيه أقلامهم فمن ثبت قلمه على سطح الماء يأخذها، فطفا قلم زكريّا ورسبت أقلامهم {إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ} فأخبرنا -سبحانه وتعالى- أنّهم ألقوا أقلامهم من أجل أن يعرفوا "أيّهم يكفل مريم" فأخذها زكريّا وربّاها، حتّى إذا نشأت وبلغت مبالغ النّساء انزوت في محرابها تتعبّد فيه.

الخبر عن مريم ابنة عمران تجيب زكريّا -عليه السّلام- جواب من عرفت وظيفتها في الحياة:

وهنا تأتي الكرامة العظيمة لها ومنها تأتي المصلحة لمربّيها أيضًا، وصارت {كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ۖ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ} فزكريّا يأتي عليها كلّ زمان يرى أحوالها وهي باقية في المحراب، ومن اللّطائف أنّ المحراب سُمّي محرابًا لانفراد الإمام فيه وبُعده عن القوم، ومن هذا يُقال فلان حَرْبٌ لفلان، يعني بينهم بُعْدٌ وتباغض، وهذا المحراب مأخوذ من المحاربة ومن البُعد؛ لأنّ المصلّي يحارب الشّيطان ويحارب نفسه بإحضار قلبه، فيبذل جهوده أن يبعد عن الشّيطان وعن هوى نفسه. مقصودنا أن نصل إلى الدّعاء وهذه كلمات مهمّة في الآية إن شاء الله ينفعنا فهمها.

{وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا} هذه من الكرامات؛ ووقوع الكرامة لأولياء الله أمر ثابت، وعقيدتنا في الكرامة باختصار:

- أنّ الله على كلّ شيء قدير، يُكرم عباده بما شاء -سبحانه وتعالى- يُكرم أولياءه الّذين وصفهم الله عزّ وجلّ: {أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (62) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ}[11] فعلى قدر الإيمان والتّقوى يكون كرامة الله للعبد وكم أكرمنا الله، كم مرّت علينا مواقف عجيبة وغريبة لا تقدر حتّى على أن تحكيها لأحد من لطافة تفاصيلها، لكنّ الله يكرمنا بها لنعلم أنّ الله يكرم عباده المؤمنين، فالفرح بها ليس فرحًا بجُرْم العطيّة بقدر ما هو فرح بقرب المعطي سبحانه وتعالى.

نحن نطيع الله ونُقبل عليه وهو -سبحانه وتعالى- مستحقّ لذلك صاحب النّعماء علينا، ابتدأنا بحياة الأبدان ثمّ رزقنا حياة الأرواح، فهو المستحقّ لذلك ومع ذلك هو يكرمنا -سبحانه وتعالى- كانت هذه الكرامات لها، وكانت سببًا لتقوية إيمانها وتكميل يقينها لما ستستقبل بعد ذلك، فكانت {كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا} فكان يسألها لأنّ هذا الرّزق كما يذكر أهل العلم أنّه كان يجد فاكهة الصّيف في الشّتاء وفاكهة الشّتاء في الصّيف، وأنّه كان عليها أبواب مغلقة فمن كان يُدخل لها مثل هذا لأنّ زكريّا يعلم أنّه لا أحد يدخل عليها فمن أين لها هذا، وهذه الفاكهة ليست موجودة الآن، بل قال أهل العلم أنّه كان يجد عندها فاكهةً لا تُعرف كأنّها من فواكه الجنّة والله أعلم.

المقرّر هو أنّ عندها رزق يُعلم أنّه لم يأتي به أحد من أهل الدّنيا فأجابت إجابة من نبت نباتًا حسنًا وعرف من هو ربّ العالمين، وهذه هي وظيفة الخلق هنا في الأرض، الله الغنيّ الكريم الرّحيم، كما سمعنا أمس أنّ ربّنا {غَنِيٌّ كَرِيمٌ}[12] في كلام سليمان، ونحن على يقين أنّه غنيّ، ومن غناه -سبحانه وتعالى- أنّه خلق خلقًا ليكرمهم ويعطيهم ويرفعهم، فقد خلقهم لهذه الأمور: خلقهم ليعرفوا من ربّهم، وجعل لهم الحياة ابتلاءً واختبارًا فالرّابح هو من عرف الله، فلا تقل: (الله غنيّ فما حاجته لعبادتنا؟) فهذه الأمور الّتي يمكن أن تحصل في النّفس انْهَ نفسك عنها، واعلم يقينًا أنّ الله -عزّ وجلّ- ابتدأ الخلق بمنّة الخلق ليُكرمهم، واقرأ في القرآن كم كرّم الله الإنسان ابتداء بخلق آدم بيده وإسجاد الملائكة له، وفي خلال ذلك

---

[11] () سورة يونس: 62-63.

[12] () سورة النمل: 40.

تعليمه ورفع شأنه بالعلم، وكم أنت تجد لذائذ بهذا بالعلم والمعرفة، فالله غنيّ كامل الصّفات وأراد أن يُظهر صفاته لخلقه ينتفعوا بها، فخلق هذا الخلق الّذي منه بنو آدم وخلق لهم كلّ هذه المخلوقات وأدخلهم في هذا الاختبار ليعرفوا ربّهم، فانظروا إلى هذه المرأة الّتي نبتت نباتًا حسنًا، فطرة سويّة وعلم جعلها تجيب على الشّيخ الكبير الّذي هو قد سبقها علمًا ومعرفةً بالله؛ بل ونبوّةً فيسألها سؤال المتعجّب فتجيبه جواب من عرفت وظيفتها في الحياة وأنّها تعبد الله، فقالت له: {إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ} لهذا خلق الله الخلق {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا} خلق هذا كلّه {لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا}[13] فأنت يا عبد المستفيد، والله أراد أن ينفعك بخلقه إيّاك وبتعريفه لك نفسه -سبحانه وتعالى- وهو في غنًى عنك، وما أقامك تصلّي إلّا لتزكو نفسك وتطرق باب الملك.

مَنْ في الأرض لو قيل لهم الملك يقول لكم تعالوا خمس مرّات اطرقوا بابه واطلبوا ما تريدون، قالوا للملك لماذا تُكلّفنا؟! ولماذا تُتعبنا؟! ولماذا تطلب منّا أن تعالوا اطرقوا الباب؟! ولماذا تطلب منّا أن نقف بطريقة معيّنة، ونتصرّف بطريقة معيّنة لنأخذ منك؟! من يقول هذا الكلام؟ كلّ النّاس لو نزّلوا عليهم مرسومًا وقالوا لهم من أراد منكم أن ينتفع بما عند الملك من خزائن فليأت في السّاعة الفلانيّة، والفلانيّة، والفلانيّة، وليقف في مكانه، وليفعل كذا وكذا وقبل أن يأتي يتطهّر ويلبس أحسن الثّياب ويفعل كذا بنفسه، وعندما تُقبلون تقولون كذا وكذا وسيعطيكم على كلّ كلمة تقولونها كذا وكذا من العطايا، لو خرج أحدهم وقال: (لماذا يتعّبنا الملك؟! لماذا يقول لنا هكذا؟!) ماذا يفعل به الباقون؟! يهجمون عليه ويقولون: (إذا كنت لا تريد أن تنتفع من عطايا الملك فاسكت ولا تتكلّم، نحن نريد أن ننتفع من عطايا الملك!) وتجدهم يتواصون ويتسارعون ويذهب بعضهم لبعض ويشدّ بعضهم بعضًا، ويأمرهم بأن ينتصبوا فينتصبوا ويعرفوا أنّ هذا الأمر لمصلحتهم، وأنّ الملك من أتاه أعطاه ومن لم يأته فهو الخسران وهو الّذي لن يجد بعد ذلك من يغيثه أو يعطيه! مَنْ في الأرض يُنكر هذه المسألة العقليّة المعروفة؟! فعُلم من هذا أنّ الملك العظيم الرّبّ الكريم تفضّل على خلقه بهذه الحياة ليعرفوا كماله ولينتفعوا من كماله، فالأمر عائد إليهم تمامًا وهو غنيّ كريم أكرمهم بهذه الخِلْقَة.

---

[13]() سورة الطلاق: 12.

وانظروا إلى مريم -عليها السّلام- قد أخذت من هذا الأمر بالنّصيب الوافر، عرفت مَنْ ربّها وعرفت مَنْ أكرمها وقالت لسائلها: {أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ۖ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ} هذا مقصود كلّ الحياة الّتي نعيشها وهو أن نعرف الله، ولهذا خلق الله السّموات والأرض، ولهذا أمرنا بالعبادات، فقد أمرنا بالعبادات لنزداد سُموًّا لأنفسنا ونزعًا لها من الدّنيويّة إلى الغيبيّة، من الأمر الشّاهد إلى الأمر الغيبيّ، أنت ترى حولك شواهد كثيرة تدلّك على عظمة ربّ العالمين، وتعيش في حياتك كرامات كثيرةً يكرمك الله بها، أليست هذه شاهدًا؟! فلتُقَوّي إيمانك بالغيب!

فمريم شهدت عطايا، فاكهةً أو أيّ شيء من هذه المأكولات، عرفت أنّ هذا الشّاهد الّذي تلمسه بيدها دلّها على الغيب أنّه من عند الله، وعرفت عن ربّها أنّه "يرزق من يشاء بغير حساب" فوصلت للمقصود، وقامت ترقّي نفسها وتعبد الله وتقف بين يديه تتمسّك بحبل الله، فهي النّاجية والله هو الغنيّ سبحانه وتعالى.

ثمّ نأتي للموطن المهمّ في حقّ زكريّا، قال الله عزّ وجلّ: {هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ} ما أعظمها من كلمة!

- {هُنَالِكَ} في ذلك المكان.
- {هُنَالِكَ} في ذلك الزّمان.

فإنّ هنا يمكن أن تكون ظرف مكان أو ظرف زمان، يعني في ذلك الوقت، فهنالك في ذلك الزّمان وفي ذلك المكان {دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ} لـمّا رأى كرامة مريم على الله ومنزلتها منه -تعالى- علم حقّ اليقين أنّ "الله يرزق من يشاء بغير حساب" فطمع بربّ العالمين. هل يعني أنّه ما كان يعرف أنّ الله يرزق بغير حساب؟! يعرف وكان يدعو ويسأل لكن هذه اللّحظة اليقينيّة، لحظة اليقين التّام الّتي إذا وصل لها الإنسان في حياته لا بدّ أن يستثمرها مباشرةً فيطلب الله -عزّ وجلّ- مباشرةً، يطلب منه عطايا الدّنيا والآخرة، وزكريّا -عليه السّلام- ما طلب إلّا عطيّة الآخرة وإن كانت صورتها صورة الدّنيا، كما سيتبيّن لنا إن شاء الله في جلستنا القادمة.

ونحن مقبلون على هذه اللّيلة المباركة الّتي هي أرجى ليالي الشّهر فليكن يقيننا بربّ العالمين وبسماعه دعاء المسلمين يقينًا عظيمًا، ومن الشّواهد الّتي تشهد على هذا اليقين أنّه

انتشر أمس في المملكة مقطع فيه ممرّضة مباركة جزاها الله خيرًا تُخبر عن تسارع حالات الشّفاء وأنّهم كانوا يهلّلون ويكبّرون من كثرة سرعة الشّفاء إن شاء الله أنّ ما قالته يكون حقًّا، وقد كان في التّقرير أنّ الشّفاء قد تضاعف وأصبح أعلى من الحالات الّتي تمّ تشخيصها بأنّها مريضة. وهذا التّسارع المفاجئ من المؤكّد أنّه أمر عجيب! لكنّه ليس عجيبًا على قدرة الله، ولا هو بعجيب على من كان يدعو الله قبل الأمس ثمّ بالأمس أراهم الله، ونحن على يقين، نسأل الله العظيم أن يشفي جميع مرضى المسلمين من هذا الوباء ومن غيره، الله يشفيهم جميعًا ويرحم موتى هذا الوباء وغيره، ويرحم موتانا جميعًا الّذين سبقونا بالإيمان، الله ينقلهم من ضيق اللّحود إلى جنّات الخلود، الله يرحمنا إذا صرنا إلى ما صاروا إليه {رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا ۖ إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}، {وَتُبْ عَلَيْنَا ۖ إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ}[14].

إن شاء الله غدًا نرى ما كان من طلب زكريّا -عليه السّلام- في سورة آل عمران، وفي سورة مريم بأمر الله.

سبحانك اللّهمّ وبحمدك، أشهد أن لا إله إلّا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.

[14]() سورة البقرة: 127-128.

اللّقاء الثّاني

دعاء زكريّا -عليه السّلام- في سورة مريم

موطن الآيات (2-11):

{ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا (2) إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا (3) قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا (4) وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا (5) يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا (6) يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا (7) قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا (8) قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا (9) قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا (10) فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا}

مسألة:

ــ الله الغنيّ الكريم تعرّف إلى عباده بصفاته حتّى يحصل منهم القيام بوظيفتهم:

صفة رحمة الله الّتي رحم بها الخلق جميعًا.

ــ تعلّمنا في هذه القصّة ستّة من آداب الدّعاء

المقدّمة: الله الغنيّ الكريم تعرّف إلى عباده بصفاته حتّى يحصل منهم القيام بوظيفتهم

السّلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الحمد لله ربّ العالمين، والصّلاة والسّلام على نبيّنا محمّد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

نحمد الله حمدًا كثيرًا طيّبًا مباركًا، ونسأله كما منَّ علينا بهذه الأيّام الفاضلة، وكما منّ علينا بهذا الكتاب العظيم الّذي به نتعرّف عليه ونقوم بوظيفتنا الّتي من أجلها خُلقنا ألا وهي معرفته -سبحانه وتعالى- فإنّ الله -عزّ وجلّ- الغنيّ الكريم خلق الخلق ليعرفوه، وليحصل لهم الانتفاع من صفاته العظيمة، فيعاملهم -سبحانه وتعالى- معاملة الكريم الرّحيم، فإذا أقبلوا عليه أكرمهم، وإذا ابتعدوا عنه ناداهم وحلم عليهم، وهو -سبحانه وتعالى- في غنًى عنهم.

فهذا باب صفات الله ومعرفة الله باب عظيم القدر رفيع المنزلة، لأجله خُلق الخلق لكي يعرفوا كمال الرّبّ -سبحانه وتعالى- وينتفعوا من هذا الكمال ليعرفوا الرّبّ الرّحمن الرّحيم الّذي هو أرحم بهم من أمّهاتهم اللّاتي ولدنهم.

إذا تقرّب العبد إلى ربّه شبرًا تقرّب الله إليه ذراعًا، يداه مبسوطتان -سبحانه- يُنفق كيف يشاء، يفرح بتوبة عبده إذا تاب، وسعت رحمته كلّ شيء، فالله -سبحانه وتعالى- تعرّف إلى عباده بصفاته:

- حتّى يحصل منهم القيام بوظيفتهم.
- حتّى يحصل لهم التّمتّع والسّعادة بهذه الوظيفة.

فمن عرف الله، وعامل الله بما يعرفه عنه، لا يذوق الشّقاء مهما هبّت عليه رياح المخاوف والمواقف والأحداث فهو في طمأنينة لله. فإذا حصلت هذه المعرفة حصل كمال الحبّ والتّعظيم لربّ العالمين، ومن ثمّ الإقبال الحقيقيّ وهذه هي حياة قلوب العباد، فبهذا تنقطع من القلب العلائق كلّها بغير الله، ولا يبقى في القلب علائق إلّا لله.

وهذا الأمر سيظهر لنا جليًّا ونحن نستفتح الكلام عن زكريّا -عليه السّلام- في سورة مريم إكمالًا لما مرّ معنا في سورة آل عمران من الخبر عن زكريّا، نبتدئه في سورة مريم ثمّ نكمل الموطنين معًا، ويتبيّن لنا مزيد من كمال الله -عزّ وجلّ- وكمال صفاته الّتي:

- من أجل معرفتها خُلق الخلق.
- ومن أجل الاستفادة منها خُلق الخلق.

2/ دعاء زكريّا -عليه السّلام-

في سورة مريم

موطن الآيات (2-11):

{ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا (2) إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا (3) قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا (4) وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا (5) يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا (6) يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا (7) قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا (8) قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا (9) قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا (10) فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا}

دعاؤه -عليه السّلام- في موطن سورة مريم *(2-11)*

نستفتح الخبر عن زكريّا -عليه السّلام- كما ورد في سورة مريم، وإن شاء الله من خلال هذه الآيات نزداد معرفةً بصفات الله:

{كهيعص (1) ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا (2) إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا (3) قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا (4) وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا (5) يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا (6) يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا (7) قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا (8) قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا (9) قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا (10) فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا (11) يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا (12) وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا (13) وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا (14) وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا}[15].

هذه الآيات من مطلع سورة مريم ابتدأت بالحروف المقطّعة، ثمّ أتى الخبر عن هذا الكتاب العظيم أنّ فيه "ذكرُ رحمةِ" ربّ العالمين، فقال سبحانه وتعالى: {ذِكْرُ} يعني فيما يُتلى عليكم {ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ} والكاف هنا تخصيص للنّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- لبيان أنّ هذا الّذي يُتلى في أوّل هذه السّورة الكريمة هو ذكر الله رحمته الّتي رحم بها عبده زكريّا، ويخاطَبُ النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- ومَن وراءَه لكي يعرفوا عن الله رحمته، وكيف نزلت عليه رحمة الله وهو في هذه الحال حين ناداه {نِدَاءً خَفِيًّا} يعني دعاه في سرّ وخفية؛ فالله يُثني على زكريّا -عليه السّلام- لكون دعائه {خَفِيًّا} وهذا كما سيتبيّن بعد ذلك يدلّ على أنّ إخفاء الدّعاء أفضل من إظهاره وإعلانه في أحوال معيّنة.

---

[15] () سورة مريم: 1-15.

صفة رحمة الله الّتي رحم بها الخلق جميعًا:

فهنا يأتينا أنّ عِلْمَنَا عن حال زكريّا إنّما هو علم برحمة الله -عزّ وجلّ- وما أعظم حاجة النّاس لمعرفة رحمة الله فإنّهم في كلّ ضيق وشدّة أو في كلّ سعة يحتاجون أن يعرفوا هذه الصّفة لربّ العالمين، يحتاجون أن يعرفوا أنّ الله -عزّ وجلّ- ((أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بِوَلَدِهَا))[16] كما في الحديث.

فرحمة الله واسعة محيطة بكلّ شيء تشمل البرّ والفاجر، والمؤمن والكافر، والإنسان والحيوان، فما من مخلوق إلّا وقد وصلته رحمة الله. وكما هو معلوم فإنّ رحمة الله رحمة عامّة بالمخلوقات كلّها {رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا}[17] وهذه الرّحمة الّتي يعيش بها النّاس، والّتي بها يأكلون، وبها تطرح الأشجار ثمارها، وبها يحلبون الضّرع، وبها تجري الأنهار، وبها يتنفّس الإنسان، فهذه رحمة عامّة وأثرها في الدّنيا تامّ الوضوح.

وهناك رحمة خاصّة بأهل الإيمان، كما قال -سبحانه وتعالى- في سورة الأعراف: {وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ}[18] فهذه الرّحمة الخاصّة، رحمة الله وسعت كلّ شيء وتُكتب خاصّةً لهؤلاء الّذين حقّقوا التّقوى فجعلوا بينهم وبين غضب الله وقايةً.

رحمة الله العامّة ظهر أثرها في الوجود، فكلّ إحسان نراه إنّما هو من آثار رحمة الله:

- ✔ برحمة الله أَطْلَعَ الشّمس والقمر وجعل اللّيل والنّهار.
- ✔ وبرحمته سخّر لنا الخيل والإبل والأنعام.
- ✔ وبرحمته -سبحانه- أنزل علينا الكتب وأرسل علينا الرّسل وعلّمنا من الجهالة وهدانا من الضّلالة وبصّرنا من العمى سبحانه وتعالى.
- ✔ برحمته خلق الخلق، وهذا معنًى يجب أن نؤكّد عليه ليتّضح أنّ الله لا ينتفع من عبادة العباد، بل خلقهم ليذوقوا من رحماته وليستفيدوا منها، ليعرفوا كماله فيغتنموا كمال ربّهم في حياتهم الدّنيويّة، ويسيروا على طريق يوصلهم للخلود في هذه الرّحمة في الآخرة، فالله غنيّ كريم:

---

[16] () أخرجه مسلم، (5076).
[17] () سورة غافر: 7.
[18] () سورة الأعراف: 156.

- غنيّ مستغن عن الخلق.
- كريم خلقهم ليعرفوه.

ومعنى ليعرفوه تبتدئ من أن يعرفوا أنّه -سبحانه وتعالى- خلقهم لمصلحة أنفسهم، وأَمَرَهم بكلّ أمر لأجل أن يترفّعوا ويترقّوا ويتحسّنوا، فكلّ عبادة وصلاة وركوع وسجود بها يرتفعون وبها يسمون، وبها يتّصلون بربّ العالمين فيعطيهم من رحماته.

وقد مرّ معنا في اللّقاءات الماضية بيان مثل هذا، كما ورد في الحديث الّذي خرّجه البخاري[19] في صحيحه في كتاب الاعتصام كيف أنّ الملائكة نزلت، وفي بعض الرّوايات أنّ جبريل وميكائيل، يعني كبار الملائكة نزلوا عند النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- وضربوا له مثلًا وهو نائم، يمثّل حال البشريّة كلّها، هذا المثل معناه كما مرّ معنا أنّ الله -عزّ وجلّ- ((بَنَى دَارًا، وَجَعَلَ فِيهَا مَأْدُبَةً)) وأرسل رسولًا، فمن اتّبع رسول صاحب الدّار الّذي يقول لهم كيف يسيرون في الطّريق ليصلوا إلى هذه الدّار ليأكلوا من المأدبة، فلو قال أحد: (لماذا بنى الدّار؟! لماذا دعانا إلى المأدبة؟! كنّا مرتاحين ولا نريد الذّهاب إلى المأدبة!) يُقال لهم أنتم سفهاء! بنى دارًا وجعل فيها مأدبةً وأرشدكم إلى الطّريق بأن أرسل لكم من يقودكم حتّى تصلوا إلى المأدبة، ثمّ أنتم تمتنعون وتقولون: (لا! لماذا بنى دارًا؟! ولماذا جعل مأدبةً؟!) هذا لا يقوله إلّا السّفهاء!

وهذا مثل مثال اللّقاء الماضي، أنّ ملكًا من ملوك الدّنيا دعا النّاس خمس مرّات إلى بابه يطلبون حوائجهم، ويترقّون في مراتبهم، وكلّما جاؤوا عنده رقّاهم مرتبةً وأجابهم بعد أن كان علّمهم ماذا يقولون، فكلّما كان الواقف على بابه أكثر فهمًا وتركيزًا واستيعابًا لما يقول سيرتفع درجةً وسيحصل على عطيّة وهكذا، يأتي أحد من الخارج ويقول: (لماذا فتح الملك بابه خمس مرات؟! لماذا يُتعبنا؟!) فيُجاب عليه: هذه سفاهة! كيف تقول لهذا الباب المفتوح من الرّحمة لماذا؟!

فالله خلقنا على خِلْقَة وفطرة نستطيع بها أن نستوعب لماذا نحن موجودون، وكيف أنّها منّة من ربّ العالمين، وكيف أنّ الله ما يحتاج إلينا، وكيف أنّه مع غناه يأمرنا بعبادته، لماذا؟ لأنّ حقيقة الأمر بالعبادة إذا فككناها سنصل إلى حقيقتين:

---

[19]() أخرجه البخاري، (6890).

الحقيقة الأولى: أنّنا موجودون هنا لأجل أن نعرف الله: وهذا قد ذكره الله -عزّ وجلّ- في كثير من النّصوص لكن أبرزها آخر سورة الطّلاق: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا}[20] الله موصوف بهذه الصّفات قبل أن يخلق أيّ أحد من الخلق، ثمّ خلق الخلق لينتفعوا بصفاته، ليصلهم من رحماته.

فهذه النّقطة الأولى المهمّة أنّك أنت موجود هنا لتتعرّف على الله وتجعل كلّ ما يدور حولك في سِلْكٍ منتظم في معرفة الله، وكلّ يوم تزيد: (ما ألطف الله! ما أرحم الله! ما أقرب الله! ما أعظم الله! ما أعظم قدرة الله يقول للشّيء كن فيكون!)، تنظر إلى تدبيره وكأنّه سِلْكٌ وكلّ يوم تضع فيه خرزةً من معرفة الله حتّى يصبح عِقْدًا ثمينًا تقدّمه لأجل أن تتقرّب إلى الله فيكون قُربى، إذا قبلها الله كانت الطّريق إلى الجنّة.

إذا عرفنا هذا وعرفنا كماله وجلاله وعظمته -سبحانه وتعالى- قابل هذا الأمر:

الحقيقة الثّانية: أن تكون شاكرًا: فالعبادة كلّها هي الشّكر {اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ}[21] وليس هذا النّصّ فقط، بل نصوص كثيرة لو تابعنا كلمة "شكر" في القرآن لرأينا عجبًا! وأنّ هذه العبادات كلّها شكر لله، ابتداءً من أنّ الله -سبحانه وتعالى- مَنّ علينا بالوجود وانتهاءً بما ينتظر الانسان المؤمن عند ربّه من نعيم، فكلّ شيء حولنا يدفعنا إلى هذا الطّريق المستقيم.

المقصد دراسة دعاء زكريّا، لكن في هذا الموطن بالذّات ظهرت مسألة الرّحمة، رحمة الله الّتي رحم بها خلقه جميعا:

- فالله كتب على نفسه أنّ رحمته تسبق غضبه.
- بل من رحمته -سبحانه وتعالى- أن جعل العباد يتعاطفون ويتراحمون، كما هو مشهور في الحديث: ((حَتَّى تَرْفَعَ الدَّابَّةُ حَافِرَهَا عَنْ وَلَدِهَا، خَشْيَةَ أَنْ تُصِيبَهُ))[22] من آثار رحمة الله.

---

[20] () سورة الطلاق: 12.
[21] () سورة سبأ: 13.
[22] () أخرجه مسلم، (5071).

- من رحمة الله -سبحانه- أن يُرسل الرّياح فتثير سحابًا فيبسطه كيف يشاء، ثمّ ترى المطر ينزل من السّحاب فيحصل الاستبشار بعد ذلك بين النّاس، والنّاس في شدّة الحاجة إلى المطر.

- ومن أعظم رحمات الله أن خلق الدّار الّتي جعلها لمن أطاعه، وجعل المأدبة فيها وجعل أعظم نعيم فيها رؤيته -سبحانه وتعالى- فهذه رحمة الله العظيمة الّتي لو تأمّلها الإنسان وتأمّل كلّ ما يوصل إلى هذه الرّحمة العظيمة الّتي هي جنّة الله سيجد عظمة الله في ذلك، أليس من رحمة الله أن يحرّم على عباده الخبائث؟ أليس من رحمة الله أنّه يحرّم علينا كلّ ما يضرّنا؟ والنّاس اليوم يزدادون يقينًا أنّه من رحمة الله أنّ الله حرّم علينا هذه الخبائث، أليس من رحمة الله أن أباح الله لهم الطّيّبات؟ بلى من رحمة الله.

يطول الكلام عن هذا المعنى لكن المقصود أن يبقى الإنسان متيقّنًا بغنى الرّحمن، وأنّ رحمته -سبحانه وتعالى- وتفضّله على خلقه بهذه الرّحمة من أعظم عطايا المنّان -سبحانه وتعالى- فهو منّان يعطي النّوال قبل السّؤال.

مسألة

تعلّمنا في هذه القصّة ستّة من آداب الدّعاء:

1) الإسرار بالدّعاء لأنّه أقرب إلى الإخلاص وأبعد من الرّياء.

2) استحباب التّقديم في الدّعاء بالخضوع وإظهار الفقر لاستدعاء رحمة الله واستجلاب رأفته سبحانه.

3) التّوسّل إلى الله بنعمائه وعوائده الجميلة السّابقة لـمُرادات مستقبليّة.

4) حينما يجد الإنسان لحظة اليقين فليسارع بمناجاة ربّ العالمين.

5) لا بدّ من عناية الإنسان بتوريث العلم وحمل همّه بسؤال ربّه أن يرزقه الـمُعين.

6) من آداب الدّعاء أن يبقى الإنسان ذا رجاء في الرّحمن.

مسألة تعلّمنا في هذه القصّة ستّة من آداب الدّعاء

1_ الإسرار بالدّعاء لأنّه أقرب إلى الإخلاص وأبعد من الرّياء:

قد ذَكَرَ الله في هذه السّورة رحمته الّتي رحم بها عبده زكريّا في حال أنّه ناداه نداءً خفيًّا. نعود إلى النّداء وأنّ الإخفاء في أحوال يكون أفضل من الإظهار، لأنّه أقرب إلى الإخلاص وأبعد من الرّياء، وبهذا نعرف شيئًا من آداب الدّعاء.

لـمّا قال الله عزّ وجلّ: {إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا}، النّداء في الأصل رفع الصّوت وظهوره، وهنا المقصود أنّه دعا ربّنا فهو يناديه بخفاء، وهذا ما يجتمع إلّا إذا كان هذا النّداء خارجًا من القلب أخفاه لكونه أبعد عن الرّياء وأدخل في الإخلاص، وسيتبيّن لنا أيضًا من الآيات شيء من آداب الدّعاء.

2_ استحباب التّقديم في الدّعاء بالخضوع وإظهار الفقر لاستدعاء رحمة الله واستجلاب رأفته سبحانه:

ثمّ قال -سبحانه وتعالى- عن وصف زكريّا لحاله: {قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي} بمعنى ضعف العظم، ولماذا العظم خاصّةً؟ لأنّ العظم عليه مبنى البدن، فقوله {وَهَنَ} بمعنى ضَعُف العظم لأنّه عمود البدن وبه قوامه، فإذا كان هو {وَهَنَ} فغيره من باب أولى، هذا دليل على ضعف جميع البدن لأنّ العظم أشدّ ما في البدن وأصلبه.

قال: {وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا} فهو يصف شيئًا من حاله، وأنّ الرّأس قد كثُر فيها بياض الشّيب، وهذا الّذي ذكره زكريّا في دعائه من إظهار الضّعف والتّقدّم في السّنّ، كلّ هذا يدلّ على أنّه ينبغي للدّاعي إظهار الخشية والخشوع في دعائه، والفقر لربّ العالمين، وليس الكبر والاستغناء عن ربّ العالمين فهذا معيب.

3_ التّوسّل إلى الله بنعمائه وعوائده الجميلة السّابقة لـمُرادات مستقبليّة:

قال {وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا} وهذا معناه أنّه يضيف على ذكر حاله وضعفه ذكر معاملة ربّه له، يقول: "ولم أكن بدعائي إيّاك خائبًا في وقت من الأوقات، لم أُعَوَّد منك إلّا الإجابة في الدّعاء، يا ربّ لم تردّني قطّ" وليتذكّر الإنسان ما مضى وكان، سيرى أنّ الله أعطاه مراده أو أفضل من مراده أو دفع عنه بلاءات عظيمةً غير الأجور الباقية له يوم القيامة.

فهذا توسّل منه إلى الله بما سلف له في معاملته، وإظهار لسعادته بعلاقته بربّه: "كم ناديتك يا ربّ بقلبي وناجيتك فطمأنتني، وربطت على قلبي وأذهبت عنّي الشّرّ، كم أعنتني ودفعت عنّي فزدني من عطاياك" فهذا التّقديم استدعاء لرحمة واستجلاب لرأفة، كأنّه يقول: "زدني فأنا ما رأيت منك إلّا العطاء، فأنت عوّدتني الإجابة الّتي كانت سببًا للسّعادة، ما أكاد أخيب أبدًا لا سيما الآن وأنا في حالة الاضطرار وشدّة الافتقار من ضعف قواي فأنا أكثر حاجةً وأكثر فقرًا وأنت عوّدتني أنّك تغنيني".

بهذا نضيف على آداب الدّعاء التّوسّل إلى الله بنعمائه وعوائده الجميلة السّابقة الّتي مرّت علينا: "أنت أخرجتنا من بطون أمّهاتنا سالمين، وحفظت علينا فطرتنا وعلّمتنا الحقّ فصحّت منّا عقائدنا، فثَبِّتنا على الدّين يا ربّ العالمين، يا ربّ أنت أعنتنا في الأذكار أن نقول: (لا إله إلّا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كلّ شيء قدير) أعنتنا أن نقولها مائة مرّة وأكثر، فأعنّا ساعة الاحتضار أن نقول هذه الكلمة العظيمة وأن تكون هذه آخر كلامنا من الدّنيا" فنتوسّل إلى الله بنعمه وعوائده الجميلة لـمُرادات مستقبليّة.

بل نتوسّل إلى الله الّذي أخرج يونس من بطن الحوت، لم تهشّم له عظمًا ولم تقطع له جلدًا: "كما حفظت يونس يا ربّ العالمين في بطن الحوت فأخرجته، وكان من ضعفه الشّديد أن ظلّلته بشجرة اليقطين الّتي هي أرضيّة فَبَعُدَ عنه كلّ شرّ، يا ربّ مثلما حفظت يونس في بطن الحوت احفظ إيماننا في قلوبنا، واحفظ إيمان أبنائنا وذرّيّاتنا مع كثرة الفتن الّتي تعصف بهم، يا ربّ يونس كان في بطن الحوت في مهلكة، ونحن وذرّيّاتنا في مهلكة من الفتن الّتي تحيط بنا، يا ربّ كما حفظت يونس -عليه السّلام- احفظنا" فهذا تقرّب إلى الله بما عرفناه من عطاياه.

ولذا حينما يكون لك صحبةً صالحةً الله يرزقنا جميعًا الصّحبة الصّالحة فيأتي في درج كلامكم الثّناء على الله بصدق ما مرّ معكم من مواقف وأحداث وأحوال في حياتكم أو حياة من حولكم، فيكون هذا سببًا لحسن الظّنّ والتّوسّل إلى الله بنعمائه أنّه عوّدنا أن يعطينا ويعطي المحتاجين، فهذا تكون عنده قصّة، وهذا تكون أيضًا عنده قصّة تدلّ على كرم ربّ العالمين، فنخرج من هذه المجالس ونحن طامعون زيادة الطّمع في ربّ العالمين.

4 حينما يجد الإنسان لحظة اليقين فليسارع بمناجاة ربّ العالمين:

ولا ننسى أنّ زكريّا -عليه السّلام- قال هذا الدّعاء وهو متأثّر بالموقف الّذي حصل بينه وبين مريم، فلـمّا سألها: {أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا} من أين لك هذه الأرزاق؟ {قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ۖ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ} فقال الله: {هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ} يعني في تلك اللّحظة دعا زكريّا ربّه، ناداه نداءً خفيًّا، فأسرّه في قلبه في ذاك المكان وفي ذاك الزّمان سبحان ربّنا العظيم، فهذا يدلّ كما مرّ معنا على أنّ الإنسان حينما يجد لحظة اليقين فليسارع بمناجاة ربّ العالمين.

5_ لا بدّ من عناية الإنسان بتوريث العلم وحمل همّه بسؤال ربّه أن يرزقه الـمُعين:

لا زلنا مع زكريّا وهو يشتكي لربّنا الأحوال ويبيّن سبب طلبه لهذا المطلب الّذي يرغبه، قال: {وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي} الّذين يتولّون أمر بني إسرائيل بعد موتي، يعني رأى أنّ هؤلاء ليسوا صالحين لأن يخلفوه في القيام بالأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر والإرشاد والوعظ وحفظ الدّين فكانوا ضعفاء؛ وهذه خيبة الرّجاء من أخطر ما يؤلم من يحمل الدّين ويحمل همّه، خيبة الرّجاء أن لا يكون بعده أحد يستمرّ في التّمسّك بهدي الدّين وبحفظ آدابه.

يقول زكريّا: {وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا} كانت لا تلد من حين شبابها، فماذا يريد؟ يريد أن يهبه الله {فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا (5) يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ} فرغب إلى الله أن يهب له ولدًا يلي من الأمر في العلم وتسييس النّاس وإصلاحهم ما يكون وارثًا فيه لحال آل يعقوب -عليه السّلام- وقال: {مِنْ لَدُنْكَ} فهو في موقف رأى فيه قدرة الله -عزّ وجلّ- فكأنّه يقول: "أنت ترزق من تشاء بغير حساب، فارزقني من لدنك بمحض الفضل لأنّه لي زوجة غير صالحة للحمل وأنا عجوز، فمنك هبة محضة {فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا (5) يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا}" طلب من ربّ العالمين أن يكون هذا الوليّ وصفه أنّه رضيّ، فهو هنا يريد وراثة العلم لا وراثة المال.

وفي هذا تنبيه إلى أنّه لا بدّ أن يعتني الإنسان بتوريث العلم، فمن يكون عنده علم لا بدّ أن يبذل جهده بتوريثه، فإن قلّ الـمُعين سأل ربّ العالمين أوّلًا وآخرًا أن يرزقه من يعين.

هذا كان من حال زكريّا -عليه السّلام- أنّه بيّن سبب مطلبه وهو أنّه يريد حاملًا للدّين، وأن يكون هذا الحامل للدّين رضيًّا فيُسوس[23] بني إسرائيل وفي نفس الوقت ينفعني كونه رضيًّا، فمباشرة قال الله عزّ وجلّ: {يَا زَكَرِيَّا} وهنا يوجد مقول محذوف: "قلنا" {يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى}.

وهنا إشارات كثيرة إن شاء الله تتبيّن لنا، لكن نعود للسّياق الّذي في سورة آل عمران.

[23]() معنى سَاسَ في معجم المعاني الجامع _ **ساسَ**: (فعل)، سُسْتُ، أَسُوسُ، سُسْ، مصدر سِيَاسَةٌ. **سَاسَ أُمورَ النَّاسِ بِالحَقِّ**: تَدَبَّرَهَا، تَوَلَّى تَدْبِيرَهَا وَتصْرِيفَهَا.

مقارنة دعاء زكريّا -عليه السّلام- بين موطن آل عمران (38-41) وموطن مريم (2-11)

{هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ (38) فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ (39) قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ (40) قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً ۖ قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ}[24].

6_ من آداب الدّعاء أن يبقى الإنسان ذا رجاء في الرّحمن:

في السّياق الّذي في سورة آل عمران الآية (38) قال الله عزّ وجلّ: {هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ} ماذا قال لربّه؟ {قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ} إذًا هذا كلامه كما ورد في سورة آل عمران، يُراد بهذا أنّ جُمله كلّها دارت حول طلب الذّرّيّة المباركة، الذّرّيّة النّافعة الطّيّبة وكلّ من كان في حاله كان الواجب عليه أن يسأل ربّه ولا ييأس من روحه أبدًا فإنّه -سبحانه وتعالى- على كلّ شيء قدير؛ وهذا الدّعاء بالذّرّيّة الطّيّبة حتّى لو لم يكن له أثر في الدّنيا فإنّه ينفع الإنسان ويُعَوَّض الإنسان عن هذه العطيّة يوم القيامة عطايا عظيمةً. المقصد أن يبقى الإنسان ذا رجاء في الرّحمن، فإنّه لـمّا قال الله عزّ وجلّ: {هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا} هذه الآية تدلّ على أنّ زكريّا -عليه السّلام- وعلى نبيّنا -الصّلاة والسّلام- ليس عنده شكّ في قدرة الله على أن يرزقه الولد على ما كان منه من تقدّم في السّنّ.

عندما تأتي الآية {قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ} ثمّ يذكر هو بأنّه قد بلغ من الكِبَرِ وكانت امرأته عاقرًا، فلا تظنّ أنّه قد دخل في قلبه الشّكّ أبدًا إنّما سيتبيّن لنا جواب هذا.

قال: {ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ} هذا الّذي يجب أن يكون في القلب أن نبقى طامعين في الله، ونطلب منه ذرّيّةً طيّبةً، يعني مطيعة له -سبحانه وتعالى- والإيمان {إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ} يعني مجيبه وقد أجابه الله.

---

[24]() سورة آل عمران: 38-41.

في مريم قال الله عزّ وجلّ: {يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ}، في آل عمران أرسل الله إليه الملائكة مبشّرةً {فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ} سمّاه الله. اسم "يحيى" في العبرانيّة ذكر المفسّرون أنّ معناه: نعمة الله. {مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ} يعني أنّ يحيى -عليه السّلام- سيأتي ويُصَدِّق بعيسى عليه السّلام.

من صفات يحيى أنّه سيكون مصدّقًا بنبيّ خُلق بكلمة "كن" من غير أب، والمقصود عيسى -عليه السّلام- وأيضًا من صفات يحيى أنّه {سَيِّدًا} يعني يسود قومه ويفوقهم {وَحَصُورًا} يعني لا يقرب النّساء {وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ} يعني ناشئًا من الصّالحين الّذين هم زكريّا وأصلابهم الصّالحة، ويكون في الآخرة مع الصّالحين المؤمنين، هذا في سورة آل عمران.

في مريم: {يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا} مَنَّ الله -عزّ وجلّ- بأن سمّاه بهذا الاسم، فبشّره الله بالذّرّيّة وبأنّه ولد وبأنّ اسمه يحيى، وبأنّ هذا الاسم ليس كمثله اسم {لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا} يعني أنّ هذا الاسم لم يُسمّ به أحد قبله، ما الفائدة من هذا؟ مزيد تشريف ورفعة، أو {سَمِيًّا} تكون بمعنى أنّه ليس لأحد في زمانهم شبهًا له في الفضل والكمال، وقد عُرف أنّه لم يعص الله قطّ وأنّه لم يهمّ بمعصية قطّ، وعُرف أنّه وُلد من شيخ فانٍ وعجوز عاقرٍ، وأنّه كان حصورًا لا يحتاج النّساء، وهذه كلّها يمكن أن تقوّي أنّه ليس له شبيه أو نظير.

يأتي استعجاب[25] زكريّا -عليه السّلام- الّذي أتى في سورة مريم وفي سورة آل عمران، ممّ يتعجّب؟ {قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ} وهناك سببان يمنعان ذلك:

1. أنّ {امْرَأَتِي عَاقِرًا}.
2. وأنّه قد بلغ {مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا}.

فكيف يأتي هذا الغلام؟! وهنا لا بدّ أن نعرف ما معنى سؤال زكريّا -عليه السّلام- هل هذا استبعاد لقدرة الله لأنّه شيء عجيب أن يسأل، ثمّ إذا أُجيب بمراده قال: "كيف يحصل هذا؟!" لم يكن مقصوده استبعاد قدرة الله، لكنّه ذكر أسباب تعذّر حصول الولد في العادة، فلم

---

[25]() معنى إستعجاب في معجم المعاني الجامع _ **إستعجاب**: (اسم)، مصدر اِستَعجَبَ. **إستَعجَبَ**: (فعل)، **استعجب من الأمر**:عجِب؛ أنكره لغرابته، وجده غريبًا غير معتاد.

يكن شكًّا في قدرة الله وإنّما أتى هذا على وجه التّعظيم والتّعجيب من قدرة الله، ويمكن أن يكون هذا حال كلّ من يتولّد له فرط السّرور، فكأنّه يستثبت[26] الكلام لشدّة الفرح، وهذا مثل حال امرأة إبراهيم -عليه السّلام- لـمّا بُشّرت بإسحاق فقالت: {أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ} فأُزيل تعجّبها بقول: {قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ}[27] فيكون هذا ليس شكًّا وإنّما إمّا أن يكون خرج على وجه التّعظيم لقدرة الله، وإمّا أن يكون بسبب فرط السّرور وكأنّه يعيد على نفسه هذا الأمر ويتأكّد منه، وهذه المشاعر قد تظهر مباشرةً ولا يُقصد بها أبدًا استبعاد قدرة الله، فهو لم يسأل إلّا وعنده قوّة يقين بقدرة الله لا سيما بعد مشاهدته ما حصل لمريم؛ فالّذي يظهر أنّ هذا استعظامًا لقدرة الله وتعجيبًا منها وكأنّه اعتداد بنعمته إليه، وإظهار أنّ هذا محض لطف، فكأنّه يقول: "أنا ليست عندي الأسباب، إنّما هذا محض لطف وفضل منك، مع كون أنّ هذه الأشياء بنفسها مستحيلة!".

وقد ذكر بعض أهل العلم أنّ مقصد سؤاله هذا ربّما يكون استفهامًا عن كيفيّة حدوثه: "هل أتزوّج شابّة؟ هل ستعيدنا شبابًا؟" لكن الّذي يظهر والله أعلم ما مضى من يقينه، فأجاب الله -عزّ وجلّ عليه- قال: {كَذَٰلِكَ} يعني الأمر كذلك، ولا محالة أن تلد الغلام المذكور رغم أنّك كبير في السّنّ وامرأتك عاقر، فأتت بعدها الجملة: {قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ} فمثل هذا قول يسير على ربّ العالمين {وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا} فالّذي خلقك من قبل ولم تك شيئًا قادر على أن يرزقك الولد المذكور، فأنت كنت معدومًا ولم تك شيئًا ثمّ جئت، فالله -عزّ وجلّ- يفعل ما يشاء وهذا من رحمته بك، فالإنسان كان نطفةً وعلقةً ثمّ وُجد.

{قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً} علامةً تدلّني على تحقّق هذا الأمر ووقوع الحمل لتزداد بهجتي به، فـ {قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا} يعني لا تقدر على تكليمهم {سَوِيًّا} حال كونك سويًّا لا مرض في بدنك ولا في لسانك، وهذا معناه أنّ الله -عزّ وجلّ- يجعله محبوسًا عن الكلام لا يستطيعه، فإذا حصل هذا ووجد في نفسه أنّه محبوس عن الكلام حينها يعلم أنّ الأمر قد تحقّق. فسبحان الله يعطيه الولد والأسباب ضعيفة جدًّا، ويمنعه الكلام وأداة الكلام موجودة عنده، لكنّه -سبحانه وتعالى- يُصرّف الأمور كما شاء!

---

[26]() معنى إستَثبَتَ في معجم المعاني الجامع _ **إستَثبَتَ**: (فعل)، **استثبت الأمرَ/ استثبت في الأمر/ استثبت من الأمر**:تيقَّن وتحقَّق منه، تثبَّت، نظر فيه بتأنٍّ ورويَّة

استثبت في الأمر: شاور فيه وفحص عنه.

[27]() سورة هود: 72-73

{فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ} الّذي يظهر أنّ زكريّا خرج على قومه من المحراب، فأشار إليهم أو كتب إليهم أن سبّحوا الله أوّل النّهار وآخره، فهذا الوقت الّذي خرج فيه على قومه هو الّذي بُشّر فيه بالولد، بمعنى فخرج على قومه من المحراب {فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ} فأشار إليهم {أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا} فهو فَهِمَ من هذا أنّه قد تحقّق له المقصود، وخرج غير قادر على الكلام، وأمر مَنْ وراءه بالإشارة بأن يسبّحوا الله بكرةً وعشيًّا.

ثمّ أتى الخبر عن هذه العطيّة العظيمة، فأخبر الله عن صفات يحيى -عليه السّلام- وكيف أنّ الله -عزّ وجلّ- جعل من صفاته أن آتاه {الْحُكْمَ صَبِيًّا} وأنّه كان في غاية الحنان والبرّ بوالديه {وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا} فسبحان الله كيف عوّضه الله -عزّ وجلّ- وأعطاه هذا الابن في هذا العمر لأجل إظهار كماله -سبحانه وتعالى- ويكون هذا الابن زيادةً في ميزان حسناته.

تعلّمنا في هذه القصّة آداب الدّعاء من جهات:

- في قوله تعالى: {نِدَاءً خَفِيًّا} على أنّ أفضل الدّعاء الّذي يكون فيه انكسار وخفية، لأنّه أقرب إلى الإخلاص وأظهر للانكسار والتّبرّؤ من الحول والقوّة والاعتماد على فضل الله وإحسانه.
- ومُستحبّ أن يُذكر في مقدّمة الدّعاء عجز النّفس وضعفها كما قال: {وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا}.
- ثمّ نذكر كثرة نِعَمِ الله علينا: {وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا}.
- وأحسن الأدعية أن نجعل متعلّقًا حتّى لطلباتنا الدّنيويّة بالدّين بصدق لا لمحض الدّنيا، لأنّه لم يطلب الولد لمجرّد الولد، بل قال: {وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي}.
- أيضًا لاحظنا تكرار اسم الرّبّ في هذا الموضع وفي مواضع كثيرة.

وهذه الآيات تزيدنا إيمانًا بهؤلاء الرّسل الكرام، كيف أنّ الله -عزّ وجلّ- جعل نهاية تضرّعه في نفسه، وانقطاع زكريّا إلى ربّه، أنّ الله أجاب دعاءه، وجعل الملائكة تبشّره، وجعل له آيةً في لسانه، فالحمد لله الّذي علّمنا كلّ هذه الأخبار.

نسأل الله -عزّ وجلّ- أن يزيدنا إيمانًا فنحن في رحمته طامعون، وإليه راغبون، وعن غيره مبتعدون، متعلّقون به وحده لا شريك له.

سبحانك اللّهمّ وبحمدك، أشهد أن لا إله إلّا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.

السّلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

اللّقاء الثّالث

دعاء زكريّا -عليه السّلام- في سورة الأنبياء

وحمله همّ توريث العلم:

موطن الآيات (89-90):

{وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ (89) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ}

مسألة: توريث العلم

نموذجنا في ذلك زكريّا عليه السّلام في موطن سورة الأنبياء (89-90)

وابن تيمية رحمه الله مثال يُضرب على من ورّثوا العلم

ثمّ وقفة مع اسم الله "الوارث"

مقدّمة

السّلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الحمد لله ربّ العالمين، والصّلاة والسّلام على نبيّنا محمّد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

نحمد الله حمدًا كثيرًا طيّبًا مباركًا، ونسأله بمَنِّه وكرمه أن يجعلنا ممّن اغتنم هذه الفرصة العظيمة هذا الشّهر المبارك بالأعمال الصّالحة، وتاجر مع ربّه فربح عليه أرباحًا عظيمةً، ونذكّر أنفسنا في هذه الأوقات الفاضلة أنّ ما بقي من هذه الأيّام واللّيالي الشّريفة لا زال موسمًا لطاعة الله، ورُبّ ركعة تُقبل في هذه اللّيالي فيكون نعيمًا للعبد في حياته الباقية في الدّنيا وفي الآخرة. وربّما دعوة صادقة من القلب تُصلح حياتنا وحياة ذرّيّاتنا من بعدنا، ربّما إنفاق في سبيل الله في هذه السّاعات المتبقّيات يكون سببًا لجبال من الحسنات عند ربّ العالمين، فلا بدّ من شدّ الهمّة وقوّة العزيمة والإقبال على الله إقبالًا صادقًا، وجعل كلّ ساعة من ساعات هذا الشّهر المبارك وقتًا لغنيمة وربحًا على ربّ العالمين. دخلنا تجارةً نعلم أنّها لا تبور، فنسأل الله -عزّ وجلّ- منها المزيد، المزيد، نسأل الله -عزّ وجلّ- أن يُرْبِحَنَا عليه أرباحًا عظيمةً.

نصل اليوم في مناقشتنا لأدعية الأنبياء الكرام إلى آخر موطن من مواطن الدّعاء لزكريّا -عليه السّلام- ونكون بهذا قد مررنا على أدعية الأنبياء باستثناء دعاء يوسف -عليه السّلام- في سورة يوسف، حيث يحتاج منّا دراسةً مجملةً للسّورة لكي نصل إلى أسباب الدّعاء ومعانيه، فاللّهمّ يسّر وسهّل فيما بقي.

3/ دعاء زكريّا -عليه السّلام-

في سورة الأنبياء

وحمله همّ توريث العلم:

موطن الآيات (89-90):

{وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ (89) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ}

دعاؤه -عليه السّلام- في موطن سورة الأنبياء (89-90)

{وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ (89) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ}[28].

دعاء زكريّا الّذي نحن اليوم بصدده ورد في سورة الأنبياء، الّتي هي كاسمها قد ورد فيها أخبار مجملة عن الأنبياء، أهمّها:

- دعاءهم.
- وانكسارهم.
- وذلّهم.
- ومسارعتهم إلى طاعة ربّهم.

ومن ذلك ما أخبر -سبحانه وتعالى- عن زكريّا أنّه قال: {وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ} فقال الله -عزّ وجلّ- {فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ} وهذا خبر عن الأنبياء، كانت هذه الآية ختام الكلام عن حال الأنبياء.

نناقش دعاء زكريّا في هذه السّورة بعدما تبيّن لنا دعاءه الّذي أخبر الله -عزّ وجلّ- عنه في سورة آل عمران، وفي سورة مريم، وهنا دعاءه في سورة الأنبياء.

بعدما تبيّن لنا دعاء زكريّا الّذي أخبر الله -عزّ وجلّ- عنه في سورة آل عمران، وفي سورة مريم، نناقش هنا دعاءه في سورة الأنبياء:

يقول الله -عزّ وجلّ- {وَزَكَرِيَّا} يعني واذكر ما كان عليه حال زكريّا -عليه السّلام- فما حاله؟ بيّن -سبحانه وتعالى- في هذه الآيات انقطاع زكريّا -عليه السّلام- إلى ربّه لـمّا مسّه نوع من الضُّرّ مختلف عن ضُرّ من قبله من الأنبياء الّذين أتتنا أخبارهم، إنّما كان ضُرّه

---

[28]() سورة الأنبياء: 89-90.

بتفرّده وفقدانه الأنيس الّذي يُؤَنِّسه[29] ويقوّيه على أمر دينه ودنياه ويكون قائمًا مقامه بعد موته. فدعا الله -تعالى- دعاءً مخلصًا من عَبدٍ يعرف أنّ ربّه قادر على ذلك مهما فُقدت الأسباب، فالله قادر على كلّ شيء وقادر أن يبدّل كلّ شيء، مثلما قيل لنا هنا: {وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ} مع تقدّمها في العمر وأنّها لم تكن صالحةً للإنجاب في شبابها، فمن باب أولى حال تقدّم عمرها، ومع ذلك الله على كلّ شيء قدير.

[29]() معنى أَنَسَ في معجم المعاني الجامع _ **أَنَسَ**: (فعل)، أنَسَ يؤنِّس، **أَنَسَهُ**: لاطفه وأزال وحْشته.

مسألة توريث العلم

نموذجنا في ذلك زكريّا عليه السّلام في موطن سورة الأنبياء (89-90)

وابن تيمية رحمه الله مثال يُضرب على من ورّثوا العلم

ثمّ وقفة مع اسم الله "الوارث"

مسألة توريث العلم

نبقى مع زكريّا أوّلًا ونرى هذه الحال الّتي هي من الأحوال الّتي يمرّ بها الإنسان ويحتاج فيها هذه الحاجة وهي الحاجة إلى الأنيس، فأنس العابدين بربّ العالمين لا خلاف في ذلك لكن الله -عزّ وجلّ- جعل من طبيعة البشر الحاجة لبشر مثلهم يستأنس بهم ليس في شأن دنياهم فقط، إنّما يُستأنس بهم لأجل الثّبات على الطّريق، فهي حاجة إنسانيّة طبيعيّة تبتدئ من كون الإنسان بطبيعته يحتاج إلى من يخالطه ويُؤانسه مثلما يحتاج أن يأكل ويشرب وينام، فحاجته للأنس حاجة طبيعيّة لكن ترتفع هذه الحاجة لـمّا يكون المقصود:

- الثّبات على الطّريق.
- نقل العلم ونشره.
- إصلاح المجتمع وإيصاله إلى الحقّ.

هنا ترتفع حاجة الإنسان إلى من يُؤَنِّسُه، ولنا في ذلك ثلاثة أمثلة كنّا مررنا بها نعيد تذكّرها:

المثال الأوّل: طلب موسى -عليه السّلام- مَن يُؤنِّسُه ويساعده في طريقه إلى الله: لـمّا تدارسنا في سورة طه، وفي سورة الأعراف، والبقرة، ذكرت القصّة كيف أنّ موسى -عليه السّلام- لـمّا كلّفه ربّ العالمين بالرّسالة وكان سيدخل على ملك ظالم عُرف بظلمه واشتهر وأصبح مَضرب المثل في الظّلم، طلب معه من يُؤنِّسُه ويساعده: {كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا (33) وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا (34) إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا}[30] فطلب رِدْءًا له يُقوّيه ويساعده، وهكذا النّفس تحتاج صحبةً صالحةً ابنًا أو أخًا من ذوي القرابة أو من غيرهم، المهمّ أن لا يبقى فردًا في الطّريق، وهذا يدلّ على أنّ الإنسان يحتاج إلى من يُؤنّسه في طريقه إلى الله خصوصًا لو صعبت المسائل وكانت الأحوال غايةً في الشّدّة.

المثال الثّاني: دلالة الخبر عن ولاية حملة العرش الكرام لأهل الإيمان في إدخال الأنس على العبد ومعرفته أنّ الله مُعتن بأوليائه: من الشّواهد العظيمة على ذلك عندما نقرأ في مطلع سورة غافر، حيث أخبر -سبحانه وتعالى- عن حال أهل الكفر وتحزّبهم على أهل

[30] () سورة طه: 33-35.

الإيمان، خاطب الرّسول -صلّى الله عليه وسلّم- بهذه الأخبار، وبيّن له أنّ من مضى من الأقوام كان حالهم التّحزّب على الأنبياء حيث يتجمّعون ويتحزّبون ويقوّي بعضهم بعضًا من أجل أن يعتدوا على الأنبياء، فلمّا أخبر -سبحانه- عن هذا الأمر تلاه مباشرةً الخبر عن ولاية الملائكة الكرام حملة العرش لأهل الإيمان ودعائهم لهم واستغفارهم لهم، إذا كان أهل الباطل يتجمّعون ويتحزّبون على أهل الإيمان، فإنّ حزب أهل الإيمان وجماعتهم هم الملائكة حملة العرش الّذين يستغفرون لهم، وهذا ممّا يُدخل الأنس على القلب ويعرف العبد أنّ الله مُعتن بأوليائه المنقطعين لطاعته وعبادته، فيجعل لهم أُنسَاءَ[31] وأولياء.

المثال الثّالث: عقوبة السّامري بأن قيل له: {لَا مِسَاسَ}: وهناك مثال آخر نتذكّره أيضًا في قصّة موسى -عليه السّلام- لـمّا عوقب السّامري بأن قيل له: {لَا مِسَاسَ}[32] حتّى استوحش وصار النّاس لا يكلّمونه ولا يكلّمهم، ولا يلمسونه ولا يلمسهم، فكانت هذه عقوبته، معنى هذا أنّ من حاجات الإنسان الاستئناس بالخلق.

واليوم نحن نشهد على هذا، فلمّا حُجِر على النّاس ومُنعوا من الخروج، الحمد لله النّاس مستأنسون في بيوتهم بأهلهم، لكن بعض النّاس بسبب أو بآخر حالهم أنّهم ليسوا مع أهلهم، أو أنّ بعض أهلهم ليسوا موجودين معهم، فيشعر الإنسان بالرّغم من وجود الأمن والأمان الحمد لله، وبرغم وجود أُسُس الحياة كلّها الطّيّبة من جهة المادّة ومن جهة الإيمان، لكن يبقى هناك شيء ناقص وهي حاجة الإنسان إلى الأنس، فهذه حاجة طبيعيّة.

وفي حالة زكريّا -عليه السّلام- هو لم يفكّر في الحاجة الطّبيعيّة للأنس إنّما ارتفع لما هو أعلى من الأنس الطّبيعي وهو الأنس بمن يحمل الدّين والإيمان، فنادى ربّه طالبًا هذه الحاجة الّتي هي في أصلها حاجة طبيعيّة وعند أهل الإيمان ترتفع فتصبح حاجةً دينيّةً، فطلب من ربّ العالمين ألّا يتركه فردًا لأنّ الانفراد حال تُؤلم الخلق عمومًا، وتُؤلم حامل الدّين والحقّ خصوصًا، فقال: {رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا} مُنفردا {وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ} وهنا يأتي معنًى لطيف جدًّا فهو يقول: "لا تتركني منفردًا لا ولد لي يرث الحقّ الّذي أحمله" لكن أكمَلَ فقال: {وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ} بمعنى أنّه لو قُدِّرَ ألّا يكون لي وريث فـ{أَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ}

---

[31] () **أُنُسٌ** بضمّ الهمزة والنون، جمعُ **انيس** على وزن فَعيل صفة للمُبالَغة.

[32] () سورة طه: 97.

فأنت الوارث الحقّ، يرثني الإرث الّذي لا يُداني إرثُك إرث غيرك، يعني يقول: "يا ربّ لا تتركني فردًا وارزقني من يرث العلم منّي ويرث الحقّ والاهتمام بالخلق.

هذا مثلما في سورة مريم: {وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي}[33] "لكن إرثُك يا ربّ لا يدانيه إرث فأنت الوارث حقّا لهذا الخلق، فأنت إليك المصير، وإرثك خير إرث لأنّه أشمل وأبقى"؛ ففي معنى كلامه أنّه يُعيد إلى الله مسألة حفظ الدّين، فيقول: "أنا أعلم أنّك لا تضيّع دينك، ولكن لا تقطع هذه الفضيلة الّتي هي القيام بأمر الدّين عن عقبي، فأنا أعلم أنّه لو لم يكن عندي ولد ولم أورّثه العلم ما ضاع العلم لأنّ الله هو الّذي يحفظ العلم، لكنّي أرجو أن تبقى هذه الفضيلة في عقبي وذرّيّتي"، فهنا جمع بين أمرين:

الأمر الأوّل: بين إظهار حاجته وحبّه للأنيس الّذي يعينه على شأن الدّين، وعلى شأن إيصاله.

الأمر الثّاني: أثنى على الله بأنّه هو حافظ الدّين، فأظهر حرقته على الدّين، وبيّن طمأنينته أنّ الله هو وارث الدّين ووارث الدّنيا طبعًا، وسيكون لنا وقفة إن شاء الله مع اسم "الوارث".

فعُلِم من هذا أنّ الإنسان يكون في قلبه خوف وحرص على بقاء الحقّ ونشره، إن كان من طلبة العلم الّذين يحملون الحقّ والفضيلة والخُلق الحسن، يكون في حالة حرص على توريثه ونشره سواءً للأبناء الّذين من الصّلب، أو ممّن يتعلّم ولم يكن من الصّلب.

وليُعْلَم أنّ هذا الحرص على توريث الحقّ دليل على سلامة القلب، دليل على أنّ القلب يريد نشر الحقّ ولا يريد نصرة النّفس؛ فقد تورّث الحقّ لأحد وتعلّمه وتبيّن له ويسطع نوره وأنت معلّمه لا يكون لك ذاك البروز، لكن هذا عند أهل الدّنيا، أمّا عند ربّ العالمين فهو علّام الغيوب -سبحانه وتعالى- وقد قضى لعباده أن يكون منهم الأخفياء الأتقياء، وأن يكون منهم منارات للهدى والصّلاح، قضى هذا وقضى هذا -سبحانه وتعالى- فلنكن على يقين ونحن نربّي أبناءنا جميعًا أنّنا:

- نورّثهم الحقّ والصّلاح.
- نورّثهم طريقة التّفكير السّليمة في الحياة.

---

[33]() سورة مريم: 5.

- نورّثهم كيف ينظرون إلى المال، إلى الأوقات، إلى السّماء، إلى الأرض، إلى الثّمار.
- نورّثهم كيف ينظرون للخلق حولهم ولعلاقاتهم وأرحامهم.

(كيف ينظرون) هذا ما نورّثهم، وهذه هي "التّربية"، وفي كلمة مختصرة فإنّ "التّربية" هي توريث الحقّ الّذي عرفه الخلق. تكون قد مررت بتجارب وعرفت الحقائق فتختصر عليهم الأمور، حتّى لو لم يفدهم الكلام الآن فإنّه يفيدهم في يوم من الأيّام؛ وهذا التّوريث هو التّوريث الأعظم من توريث المال والذّهب والفضّة، فإنّ هذه الأمور ينفقونها فتذهب، وربّما أسرفوا فيها وأدخلوا أنفسهم المهالك بسببها، أمّا توريث الحقّ والخُلق الحسن فإنّها حسنات جارية على من ورّثهم وعلى من استعمل هذا الميراث.

وللتّأكيد فإنّ الأنبياء لا يورّثون لا مالًا ولا درهمًا، وإنّما الحقّ واليقين والعلم يُوَرَّث من وراء هؤلاء الصّالحين ويبقى إلى يوم القيامة هذا دأب الخلق، أن يتعلّم المتعلّمون، ويتفقّه المتفقّهون، ويخلص المخلصون، وينقلون هذا كلّه لورثتهم، فيبقى الإنسان يقول: (قال لي والدي، قالت لي والدتي، أكّدت عليّ، كرّرت عليّ، كانت دائما تقول، كان والدي في نهار رمضان يقول، وفي ليل رمضان يقول، كنت أراه ناشرًا للمصحف، كنت أراه ذاكرًا لربّه، كنت أراه مُفَسِّرًا للمواقف بأنّها أرزاق) وهكذا.

هذا هو الميراث الحقيقي، والله -سبحانه وتعالى- هو الّذي يورّث هذا العلم من شاء فهو لا يضيّع دينه، فمع هذا الحرص الشّديد ومع تأكيدنا وبذلنا لكن لا يكون هناك يأس في قلوبنا لا من أولادنا، ولا ممّن نربّي، إن كنّا مثلًا نربّي طلبة العلم أو غيرهم ممّن يمرّون على الإنسان، فلا تيأس من روح الله إنّ الله لا يضيع دينه.

ابن تيمية رحمه الله مثال يُضرب على من ورّثوا العلم:

ومن عجائب ما يمكن أن يُضرب مثلًا على ذلك ابن تيمية رحمه الله، فابن تيمية كما هو معلوم لم يتزوّج في حياته إنّما تفرّغ للعلم والدّعوة والجهاد في سبيل الله بالعلم وبالسّيف فقد كان زمنه زمن التّتر، وله مواقف كثيرة في قتالهم وفي الدّفاع عن السّنّة. هذا الرّجل ممّن ابتلاه الله بالأعداء، وهذه سنّة الله أن يُبتلى أهل الحقّ بأهل الباطل، وكان ممّن يُدافع عن السّنّة دفاعًا عظيمًا، وأعطاه الله -عزّ وجلّ- عطايا عظيمةً في العلم، فكتب وعلّم وخَطَب وناقش ودافع.

وكان في الظّاهر أنّ قبضة أعدائه عليه أقوى، فسُجن مرّات عديدةً إلى أن مات في السّجن، وفيما يُذكر أنّهم أخذوا كتبه فدفنوها وأخفوها وما علموا أنّ الله بحكمته سيظهرها للخلق! ما علموا أنّ الله -عزّ وجلّ- جعل من وارثي علمه ابن كثير صاحب التّفسير، فطار تفسير ابن كثير كلّ مطار وبقي عَلَمًا عظيمًا في التّفسير وعَلَمًا عظيمًا في منهج أهل السّنّة والجماعة. وكذلك تلميذه الآخر ابن القيّم، كان له ما كان من شأن، فإن كانوا قد تمكّنوا منه في تلك الحال فإنّ الله قد جعل له من يَرثه في نفس الوقت، وليس هذا فقط وإنّما هؤلاء كانوا ورثته في العلم ولم يكونوا أبناءه من صلبه، فلم يكن فردًا!

ثمّ تمرّ مئات السّنين من القرن السّابع والثّامن والتّاسع إلى أن تأتي هذه الدّولة المباركة حامية السّنّة، بعد سنين طوال لم تكن فيها للسّنّة دولة تُحامي عنها أو تهتمّ بإظهارها، صحيح أنّه كان للإسلام دُوَل تدافع عنه لكن ليس بخصوصيّة السّنّة وإظهار العقيدة الصّحيحة، ابتداءً بالبعد عن الشّرك والتزام التّوحيد، ومرورًا بالعقيدة السّليمة في باب الأسماء والصّفات، وانتهاءً بالبُعد عن البدع في كلّ السّلوكيّات.

فكون أنّها تكون هناك دولة ذات قوّة تدافع عن السّنّة في السّنين الطّوال هذه بعد أن كان هناك ضعف شديد في الدّفاع عنها، إلى أن شاء الله وجعل هؤلاء يدافعون عن السّنّة ويحفظونها، ويأتي رجل مبارك وكأنّه يُسَخَّر ليطوف العالم هو وأبناءه وجماعة تساعده ويجمع ما تفرّق من كتب ابن تيمية، فقد تفرّقت في أماكن كثيرة ومكتبات كثيرة واعتُبرت من الكتب التّراثيّة فصار الاهتمام بها كون أنّها مخطوط من عام كذا، فأصبحت النّظرة لها ماديّةً فقط! فسخّر الله هذا الرّجل وجمع كلّ ما هو موجود ومعروف من رسائل ابن تيمية، وجمّعها في مجموع الفتاوى وطُبعت وانتشرت وهذا ما كان يمرّ على خاطر أعدائه أبدًا، لكن الله -عزّ وجلّ- هو الّذي يرث العلم، الله -عزّ وجلّ- هو الحافظ لهذا العلم.

فلا يظنّ ظانّ أنّه لو أتى زمان وضعف فيه العلم أنّ العلم يذهب، بل يحفظه الله إلى أن يشاء ثمّ يرفعه -سبحانه وتعالى- ولذلك كان من دعاء زكريّا: {وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ} يعني "فحسبي أنت يا ربّ العالمين إن لم ترزقني وارثًا، أنت كافيني يا ربّ العالمين في أن تحفظ العلم، فهذا همّي، وهذا شغلي، لكن إن كان قدرُك ألّا يكون لي ولد فأنت خير من يبقى بعد كلّ من يموت، فأنت حسبي، إن لم ترزقني ولدًا فإنّي أعلم أنّك لا تضيّع الدّين وأنّه سيقوم

بذلك من عبادك من تختاره له وترتضيه للتّبليغ، فهذا ما في نفسي حبّي لمن يحمل عنّي ويقيني أنّك خير وارث".

وقفة مع اسم الله "الوارث":

وهنا وقفة مع هذا الاسم العظيم، اسم "الوارث" الّذي فيه صفة الوراثة، ونرى كيف أنّنا نحتاج أن ندعو به، وأن نفقه هذا الاسم ونفهمه ونجتهد في معرفة الله به من أجل أن نُزيل عن أنفسنا جهلنا بربّنا، المشكلة أنّنا نجهل ربّنا ونجهل أنفسنا، وبسبب جهلنا بربّنا وجهلنا لأنفسنا قد تصيبنا الآفات والنّقائص وقد يصيبنا الكبر والحسد، لكن حينما نعلم علم اليقين أسماء الرّبّ -سبحانه وتعالى- هذه الأسماء تعالج ما في القلوب سواءً كان من كبر أو من حسد، ومن ذلك هذا الاسم العظيم "اسم الوارث"، وهذه الصّفة أنّه -سبحانه وتعالى- "يرث"، وقد ورد في كتاب الله -عزّ وجلّ- مكرّرًا، سنأتي إلى ما ورد ودلالته على وراثة الله -عزّ وجلّ- من ذلك:

قوله تعالى: {إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ}[34] بمعنى نميتهم جميعًا فلا يبقى حيّ سوى الله -سبحانه وتعالى- إذا جاء الأجل، فإذا مات جميع الخلائق وزال عنهم ملكهم كان الله هو الباقي الحقّ مالك الملك، وفي هذا كان النّداء في سورة غافر {لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ}؟ {الْمُلْكُ الْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ}[35] فيقينك أنّ {كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (26) وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ}[36] يقينك أنّ {كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ}[37] -سبحانه وتعالى- يقينك بهذا يفكّك قوّة تعلّقك بالدّنيا.

فهذا أصل المعنى أنّه لا تتمسّك! لا تتمسّك! فأنت ستزول، وسيزول كلّ أحد، وما يبقى إلّا ربّ العالمين، والـمُلك الّذي تضارب عليه هو لله عزّ وجلّ. من هذا المعنى ندخل في معنى أدقّ منه:

يقول الله عزّ وجلّ: {وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ} ماذا فعلَتْ؟ {بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ}[38] فالله يهلك القرى الظّالمة الّتي كانت تعيش

---

[34] () سورة مريم: 40.
[35] () سورة غافر: 16.
[36] () سورة الرّحمن: 26.
[37] () سورة القصص: 88.
[38] () سورة القصص: 58.

في أمن ورغد عيش، لـمّا أصابهم الأشر والبطر وما قاموا بحقّ شكر النّعمة ولم يتذكّروا أنّ الله هو الوهّاب، فكانت النّتيجة أن يأتي الله -عزّ وجلّ- عليهم بما يُذهبهم ويُذهب حضارتهم ويتوقّفوا تمامًا عن كلّ شيء حتّى لا يرثهم أحد، ولا يفكّر في أن يدخل إلى ديارهم ويرثها ويسكنها {إِلَّا قَلِيلًا}، فمن يرثها؟ يرثها ربّ العالمين؛ فـ {لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا} يعني إلّا زمنًا قليلًا، بمعنى أنّه ما يسكنها إلّا المارّة، مثلما يذكرون عن بعض القرى الّتي بقيت بعد دمار وبعد آثار بركان، وكانوا اكتشفوها بعد زمن طويل، ثمّ يأتيها النّاس فقط كسائحين ليروا آية الله، يروا كيف أنّ هذا البركان وقع على هذه الأبدان، وبقيت هذه الأبدان متجمّدة على حالها، يروا عقوبة الله فيمرّوا عليها مرور السّائحين!

بقيت مثل هذه المدن شاهدةً على مصرع أهلها وفنائها، لكن هي عبرة فقط لمن كان له قلب، أمّا مالها وهندستها وزراعتها وكلّ ما فيها من تقدّم {وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ} يعني لم يخلفهم أحد يتصرّف في ديارهم أو في أموالهم، بل الله -عزّ وجلّ- وحده الوارث لديارهم وأموالهم!

فسبحان الله هذا الأمر يجعلنا نعرف أنّ الأموال والعطايا قد تُنزع من العبد، حتّى أنّه لا يرثها أحد ولا ينتفع منها، فلا تكن غايةً في التّمسّك بها!

ومن هنا حثّ الله عباده على النّفقة، وذكّرنا كما في سورة الحديد أنّنا مجرّد مستخلفين فيما عندنا من الأموال، وأنّنا لسنا مالكين حقيقيّين إنّما المال مال الله: {آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ}[39] وقال -سبحانه وتعالى- أيضا في سورة الحديد: {وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}[40] فالله سيرث الأرض ومن عليها فلا تتمسّك، لا تضارب، لا تحارب!

ولذا الله -عزّ وجلّ- أمر نبيّه موسى أن يقول لقومه: {اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا ۖ إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ}[41] كن متّقيًا واعلم أنّ الأرض يورثها الله -عزّ وجلّ- لمن يشاء.

---

[39] () سورة الحديد: 7.
[40] () سورة الحديد: 10.
[41] () سورة الأعراف: 128.

النّاس يظنّون أنّ الأرض يرثها أهل الحضارة، فيذهبوا مدبرين عن الإسلام وعن ديار الإسلام مقبلين على الكفر وأهله وديارهِ: {اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا ۖ إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ} ولا بدّ أن تعرفوا أنّ العاقبة للمتّقين!

ألم يقل في حقّ فرعون وقومه لـمّا عصوا الله: {كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (25) وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (26) وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ (27) كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ}[42] وقد مرّ معنا ونحن نتناقش في سورة القصص: {وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ}[43] فكن مطمئنًّا لا تضارب أحدًا ولا تحارب على أمر متّصل بالدّنيا؛ فهذا المال والجاه والحضارة إنّما يداولها الله بين النّاس، وفي النّهاية الله -عزّ وجلّ- يورث من يشاء ما شاء {اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا ۖ إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ}.

فأنت مستخلف في كلّ شيء، حتّى في هذه الأرض الّتي أنت موجود فيها أنت مستخلف، فلا تظنّ أنّ أهل الحضارة لـمّا وصلوا بحضارتهم ما وصلوا أنّهم سيكونون خلفاء في الأرض وارثين لها مالكين لها! هذه أرض الله يورثها من يشاء، وأنت فقط عليك بالتّقوى.

فإذا عُلم هذا لا بدّ أن نعلم أنّ أعظم أنواع التّوريث هو ما أخبرنا الله -عزّ وجلّ- عنه في دعوة زكريّا أن يهبه الله ولدًا يكون من بعده حاملًا للعلم، فهذا أعظم نوع من الوراثة، أن يرث من بعدنا ما عندنا من حقّ ويقين، فتبقى الأجور مستمرّةً إلى يوم الدّين. ولنعتبر بشيء يسير مدهش:

اعتبر بتعليمك الفاتحة لأبنائك: فلو ربّنا رزقك ثلاثةً من الأبناء مثلًا، وعلّمت كلّ واحد منهم سورة الفاتحة والحمد لله ربّنا جعل فيهم الخير والبركة، والاستقامة على دينهم وصلاتهم فصلّوا فروضهم ونوافلهم وقيامهم باللّيل وتراويحهم بها، كم لك من الأجور؟ ما الله به عليم، أورثتهم سورة الفاتحة، ثمّ يطيل الله في أعمارهم ويصلح لهم أنفسهم وزوجاتهم وأزواجهم ويأتي لك أحفاد، فأبناءك وبناتك يعلّموا أحفادك، فيكون الأجر مازال جاريًا بالنّسبة لك، أليس هذا أمرًا مدهشًا؟! لكن هذا على حسب عناية العبد.

---

[42] () سورة الدخان: 25-28.

[43] () سورة القصص: 5.

ولذلك قد ورد في الحديث أمورًا سبعةً يجري ثوابها على الإنسان في قبره بعد موته فيرث ثوابها، قال صلّى الله عليه وسلّم: ((سبعٌ يَجري للعبدِ أجرُهُنَّ، و هوَ في قَبرِه بعدَ موتِه: مَن علَّمَ علمًا، أو أجرَى نهرًا، أو حفَر بِئرًا، أو غرَسَ نخلًا، أو بنَى مسجِدًا، أو ورَّثَ مُصحفًا، أو ترَكَ ولدًا يستغفِرُ لهُ بعد موتِه))[44] سبحان الله فأنت ينتهي عملك وهذه الأمور يبقى أجرها وهذا كلّه اليوم يسير سهل، من علّم علمًا أو شارك في تعليم علم، أو أسهم بأيّ طريقة في التّعليم، أو ورّث مصحفًا، فما أيسر الآن أن تورّث مصحفًا والحمد لله وتتركه لمن بعدك أو توزّعه في حياتك فيكون لك فيه أجر.

فالشّاهد أنّ الله هو الوارث -سبحانه وتعالى- الباقي بعد فناء خلقه، الحيّ الّذي لا يموت، الدّائم الّذي لا ينقطع وإليه مرجع كلّ شيء ومصيره، وهو -سبحانه وتعالى- الّذي جعل للخلق طُرُقًا ليُورّثوا الخير والحقّ لأبنائهم ولمن يربّون وهم الّذين في حكم أبنائهم من طلبة العلم أو غيره، وهو -سبحانه وتعالى- الّذي سيُورّث هؤلاء المتّقين جنّات النّعيم:

- ⇐ {وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ}[45].
- ⇐ {تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا}[46].
- ⇐ {أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (10) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}[47].

فطريق وراثة الفردوس أن تورّث علمًا، تورّث مصحفًا، تورّث عملًا صالحًا، ولا تنافس النّاس فيما ورثوه من الدّنيا ولا تنازعهم فيه ما استطعت إلى ذلك سبيلًا مع الطّمأنينة، وهذا كلّه نحن نطلبه ونحبّ من ربّنا ألّا يتركنا فردًا وأن لا نكون مستوحشين، ونحبّ أن يُؤنسنا أحد؛ لأنّ هذا الابن الصّالح والأخ الصّالح ممّن يعيننا على السّير في طريق الاستقامة إنّما هي نِعَم من ربّ العالمين، ونحن مؤمنون مع ذلك أنّ الله خير الوارثين فلا يضيّع دينه أبدًا.

نعود إلى دعاء زكريّا: {فَاسْتَجَبْنَا لَهُ} أي استجبنا له دعاءه {وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ} وهو هبة من الله {وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ} يعني أصلحناها للولادة بعدما كانت عاقرًا.

---

[44]() أخرجه السيوطي، (4627).
[45]() سورة الأعراف: 43.
[46]() سورة مريم: 63.
[47]() سورة المؤمنون: 10-11.

ثمّ بيّن -سبحانه وتعالى- أحوال الأنبياء الّذين دعوا الله وسألوه ورجوا ما عنده، قال سبحانه وتعالى: {إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ} هذا تعليل لما أخبر -سبحانه وتعالى- من إحسانه إلى الأنبياء فقال عنهم: "إنّهم كانوا يبادرون في وجوه الخيرات، يسارعون فيها، مع ثباتهم واستقرارهم على أصول الخير" فهم عندهم خيرات ثابتة مثل الفروض يعملونها، وكلّما لاحت لهم فرصة للخيرات ازدادوا فيها، وكان من سمتهم ما نحن في صدده من الكلام حول الدّعاء.

يقول الله عزّ وجلّ: {وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا} فهذا حالهم وقت الدّعاء، وهذا الّذي يجب أن نتمثّله في قلوبنا، يعني وقت دعائهم هم أصحاب رغب ورهب، راغبون في الثّواب راجون الإجابة في نفس العمل، يرفعون أيديهم يدعون ربّنا، ما الّذي يدفعهم؟ راغبون أن يُثابوا على أنّهم يدعون الله؛ لأنّ الدّعاء بنفسه عبادة، حين تأتيهم الحاجة يرونها فرصةً لعبادة الله. فهم في الأصل مصلّون صائمون عابدون إلى ربّهم متوجّهون، عندما تأتي عليهم الحاجة، حتّى لو كانوا قد احتاجوا الملح، فيقولون في نفوسهم: "الحمد لله هذه فرصة، يا ربّ ارزقنا" فيجمعوا في دعائهم بين أمرين:

1. الرّغبة في الثّواب.
2. والرّجاء في الإجابة.

يثيبهم الله على أنّهم دعوه، ويجيبهم ما سألوه.

وهذا ليس مثل إنسان يعتمد في تحصيل مصالحه على نفسه، ما أضعفك وما أفقرك! لماذا تضع نفسك في مكان غير صحيح؟! فيأتي أحدهم يقول: (أليس هذا كسل ويجب أن آخذ بالأسباب؟!) من قال لك أنّ رجاء الله يمنعك من الأسباب؟! لا! بل رجاء الله يجعلك تسأل الله الأسباب، وقبل أن تقوم من مقامك لتبحث عن الملح لا بدّ أن تقول: (يا ربّ ارزقني) في نفسك مناجيًا ربّك في خفاء مثل خفاء دعاء زكريّا، فإذا رجوت ربّك عبدته، فأنت في هذه الثّانية الّتي تطلب من ربّنا وتقول: (ربّنا يسهّل الأمور) أنت تعبد ربّك.

لكن نحن لا نسمع الكلام وتمرّ علينا المواقف وما ننتبه، الله يغفر لنا هذه الغفلة، لكن متى ننتبه؟ عندما نمرّ بأمر سهل ويتعقّد علينا عندها نتأدّب، وأوّل ما نقبل على هذا الأمر المرّة الّتي تليها ندعو ربّنا.

ولذلك كثيرون من بيننا وهذا مثال مناسب للنّساء، أوّل ما تجرّب مثلًا طبخةً ويكون عندها ضيوف أو زوج منتقد أو أخوات يلومونها، ولأنّها لا تحبّ أن تسمع الانتقاد، فماذا تفعل؟ (يا ربّ تتسهّل، يا ربّ تنجح طبختي، يا ربّ..) وحتّى وهي تقدّمه للنّاس تكون تقول: (يا ربّ تعجبكم!) فهذه عبادات عظيمة! ولـمّا تصبح عندها خبرة بعد مرّات عديدة واطمأنّت لنفسها فإنّها ما تقول حتّى (بسم الله) لـمّا تستفتح العمل! وربّنا رحيم حليم سبحانه وتعالى فلمّا تخيب تكون واحدًا من اثنين:

1. إمّا أن تستيقظ وتعرف أنّها أخطأت وأنّ المفروض أن تُقبل على ربّنا في كلّ حال بسؤاله.
2. أو أن تبحث عن أمر آخر فتقول: (أصابتني عين! وبعد أن كنت أضبط المسالة رأوني وعاينوني!) وكلّ هذا إنّما هو إبعاد عن الطّريق!

والصّحيح أنّك تطلب ربّنا دائمًا وأنت راغب في الثّواب، راج العطاء من ربّ العالمين، وأيضًا وأنت راهب تخاف العقاب وتخاف أن تبعد عن باب الله، فتطلب ربّنا وأنت راغب وأنت راهب.

{وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ} مُخبتين مُتضرّعين دائمي الوجل، فلا بدّ أن نعرف أنّ هؤلاء نالوا ما نالوا من المنازل العليّة بسبب ما اتُّصفوا به من هذه الخصال الحميدة:

- {يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ} أي يعملون الخيرات أساسًا، وكلّما جاءتهم فرصة للخيرات سارعوا لها.
- {وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ} مُخبتين، مُتضرّعين، دائمي الوجل، دائمي التّعلّق بربّ العالمين.

نسأل الله بمنّه وكرمه أن يجعلنا من أولئك القوم الّذين يسارعون في الخيرات ويدعون ربّهم رغبًا ورهبًا وأن نكون من الخاشعين، اللّهمّ آمين.

سبحانك اللّهمّ وبحمدك، أشهد أن لا إله إلّا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.

السّلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

فهرس دعاء زكريّا -عليه السّلام- في القرآن الكريم

اللّقاء الأوّل 3
المقدّمة: على قدر الافتقار في الدّعاء يكون الاصطفاء ويكون العطاء من الله الغنيّ الحميد 4
دعاؤه -عليه السّلام- في موطن سورة آل عمران (38-41) 7
الخبر عن امرأة عمران نموذجًا للاجتهاد في الدّعاء تقبّلها ربّها بقبول حسن: 8
الخبر عن مريم ابنة عمران تجيب زكريّا -عليه السّلام- جواب من عرفت وظيفتها في الحياة: 12
اللّقاء الثّاني 16
المقدّمة: الله الغنيّ الكريم تعرّف إلى عباده بصفاته حتّى يحصل منهم القيام بوظيفتهم 17
دعاؤه -عليه السّلام- في موطن سورة مريم (2-11) 20
صفة رحمة الله الّتي رحم بها الخلق جميعًا: 21
مسألة تعلّمنا في هذه القصّة ستّة من آداب الدّعاء 26
1_الإسرار بالدّعاء لأنّه أقرب إلى الإخلاص وأبعد من الرّياء: 26
2_استحباب التّقديم في الدّعاء بالخضوع وإظهار الفقر لاستدعاء رحمة الله واستجلاب رأفته سبحانه: 26
3_التّوسّل إلى الله بنعمائه وعوائده الجميلة السّابقة لـمُرادات مستقبليّة: 26
4_حينما يجد الإنسان لحظة اليقين فليسارع بمناجاة ربّ العالمين: 27
5_لا بدّ من عناية الإنسان بتوريث العلم وحمل همّه بسؤال ربّه أن يرزقه الـمُعين: 27
مقارنة دعاء زكريّا -عليه السّلام- بين موطن آل عمران (38-41) وموطن مريم (2-11) 29
6_من آداب الدّعاء أن يبقى الإنسان ذا رجاء في الرّحمن: 29
اللّقاء الثّالث 33
مقدّمة 34
دعاؤه -عليه السّلام- في موطن سورة الأنبياء (89-90) 36
مسألة توريث العلم 39
ابن تيمية رحمه الله مثال يُضرب على من ورّثوا العلم: 42
وقفة مع اسم الله "الوارث": 43

فهرس دعاء زكريّا -عليه السّلام- في القرآن الكريم 49